خصائص الشعر

في العصر العباسي الأول

- دراسة نقدية -

تأليف

الدكتور قدور ابراهيم عمار
المهاجي

خصائص الشعر
في العصر العباسي الأول
ـ دراسة نقدية ـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
1429 هـ 2008 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مثَّل الشعر العربي في العصر العباسي تسجيلا تاريخيا وحضاريا وثقافيا عاما، ولامس السياسة في مقامات الحكم والممارسة الفعلية، فكان الشاعر لسان حال في كثير من الأدوار، كما هو بين المتنبي وسيف الدولة الحمداني في أظهر صورة وأكبر حقيقة تاريخية ممثلة للشعر العربي في أبهى مراحله، وهي مرحلة العصر- العباسي، لذلك كانت خصائص الشعر في هذا العصر- تتصف بالواقعية الحِرفية والواقعية الفنية في ركنيها العامّين،

أما من حيث الجوانب الفنية المحضة، فهي في شكلها واضحة تستقي معانيها من البيئة العربية، وتسبح في خيال الصور الذهنية التي يصنعها اللفظ المنتقى، والعبارة الجزلة، والإيقاع الموسيقي المؤثر، وكان الشعر يسير في تموجات تتزاحم ما بين العاطفة والتجديد، مما جعل الباحثون يجمعون على أن عوامل التطور الحضاري الذي حدث في تاريخ الدولة العربية الإسلامية يومئذ، وانتقال هذا التطور الضخم الذي وقع في حياة العرب والمسلمين، بعد أن تعرضوا لتيارات شتى من الحضارات والثقافات والأفكار، التي عملت على تجديد الحياة الاجتماعية، وإذكاء روح النشاط والخصب فيها،

إضافة إلى التحرر العقلي وما صاحبه من انطلاق وجداني كان لهما فضل كبير في تطوير المجتمع والعقلية العربية الإسلامية التي اندفعت في خطوات سريعة نحو الخلق والتجديد، وكانت السماحة الإسلامية عاملا مهما فيما حدا بالناس أن تتأثر عقولهم بالنظريات والأفكار الغريبة على الإسلام التي تناولت مظاهر التعبير الفني

من شعر ونثر، وساعد على هذه الحرية أيضا أن الخلفاء لم يكونوا متزمتين بحيث يقفون في سبيلها، بل كانوا يشجعون على التطور والنقل من ثقافات الأمم الأخرى وجداولها المختلفة،

كل ذلك وغيره كثير قضى بنشوء فنون جديدة، كالشعر التعليمي وشعر المجون والغزل وتطوير أغراض كانت قبل ذلك ضيقة ومحدودة إلى فنون ذات نفوذ شعري كبير، كوصف الخمر الذي كان يتطفل على الفنون الأخرى،

الدكتور قدور ابراهيم عمار

المهاجي

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

خضع الشعر العربي في العصر العباسي الأول للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، فاكتسب مجموعة من الخصائص الفنية وغير الفنية وظهرت في فنونه وأغراضه وفي ألفاظه وأساليبه وفي أفكاره ومعانيه وأخيلته وصوره،

والحديث عن هذه الخصائص ليس بالأمر الجديد فقد رددته الكتب المتداولة في تاريخ الأدب العربي وجعلت منه مدخلا للدراسات التفصيلية والموجزة للشعر والشعراء في ذلك العصر، فهو بمثابة عرض عام يظهر الخطوط العريضة والمعالم الرئيسة لحياة الشعر في هذا العصر ويحدد مجموعة الصفات والملامح التي ميزته عن العصور الأدبية الأخرى،

ولكن مثل هذا العرض على ما فيه من فوائد لا يخلو من محاذير منها أن بعض الخصائص الفنية والظواهر الأدبية كتطور الغزل وشعر الخمر والمجون وظهور شعر لم يكن وليدة العصر العباسي بل ظهرت بوادرها القوية في أواسط العصر الأموي ولكنها نسبت إلى العصر العباسي لاشتدادها فيه وتوسعها عند شعرائه وكتّابِه،

ويتحدث الأستاذ أحمد الشايب[1] عن بداية الدولة العباسية ومستهل القرن الثاني مبرزاً صدى الأحداث في أدب هذا العصر، فيصف موقف الشعراء بالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار فيقول: (بحيث لا تكاد تجد شاعرا ذا لون خالص ثابت إلا نادراً وبحيث أن الخوف والرغبة قد تحكمتا في مواقف الشعراء)،

[1] العامل السياسي في أدب العصر العباسي ص: 15.

وليس غريبا ظهور هذا التناقض في موقف الشعراء، وليس عجيبا هذا التنوع والتعدد في اتجاهاتهم، فمن شأن هذا العصر أن يصحبه هذا القلق والاضطراب، فقد مضت دولة وأعقبتها أخرى تغايرها في اللون والاتجاه،

فالذين ذاقوا نعم الدولة المنقضية يقفون وفاء في صفها، بوحي مما كان لها عليها، ثم لا يلبثون أن يسلكوا طريقة أخرى بعد أن فقدوا مكانتهم السابقة في محاولة للحصول على هذه المكانة في الدولة الجديدة، فكان هواهم أمويا ثم أمسى عباسيا، وهو موقف ساقته الرغبة والرهبة،[2]

ومنها أيضا أن الخصائص الفنية للشعر العباسي عامة لا يشترط وجودها في شعر جميع الشعراء ولا انطباقها على كل الأغراض والفنون، فقد يخرج عليها شاعرا أو أكثر وقد يختص بها في فن دون فن، أضف إلى هذا أن نسبتها إلى العهد العباسي لا يعني عدم وجودها في العصرين السابقين، فرقة العبارة التي يغلب أن تعد من خصائص الشعر العباسي قد تلاحظ في الشعر الجاهلي والأموي، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، وقد أكد النقاد هذه الظاهرة ومثلوا لها كما فعل ابن الأثير في المثل السائر قوله:[1]،

---

[2] التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي، للدكتور مجاهد مصطفى بهجت، الجمهورية العراقية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلسلة الكتب الحديثة، مؤسسة المطبوعات العربية بيروت لبنان 1402هـ 1982م

[1] الأمثلة كثيرة نجدها في مديح بشار ومديح أبي نواس وطردياته وفي مديح أبي العتاهية من شعراء الحواضر، أما شعراء الأقاليم والبادية فقد حافظوا على الأسلوب القديم، انظر في ذلك المثل السائر 163/1 وما بعدها،

كذلك قد ورد للعرب في جانب السرقة من الأشعار ما يكاد يذوب رقته كقول عروة بن أذنيه[3]:

إن التي زعَمَتْ فــؤادَكَ ملَّها
جُعِلَتْ هواك كما جُعِلَتْ هــوًى لها
فبِكَ الذي زعمـت بها وكلاكُما
يُبْـدي لصاحبه الصبابـةَ كُلَّها
ويَبِيـتُ بين جوانحي حبٌّ لها
لو كان تحت فِراشهـا لأَقلَّــهَا[4]
ولعمـرُها لو كان حبُّك فوقها
يومـا وقد ضَحِيـتْ إذاً لأَظلَّها
وإذا وجـدتُ لها وساوسَ سَلْوَةٍ
شَفَـعَ الفُؤادُ إلى الضميـر فسلَّهَا
بيضـاءُ باكَـرَهَا النعيمُ فَصَاغَها
بلباقـــــــةٍ فأدقَّهـا وأجلَّهـا
منعَـتْ تحيَّتَهَـا فقلـت لصاحبي
ما كـان أكثـــرَهَـا لنا وأقلَّها
فَـدَنَا فقـال لعلها معْـذُورةٌ

---

[3] الأغاني، جـ / 18 ص: 247 وما بعدها، طبعة دار الثقافة بيروت لبنان 1983،
[4] أقلها: أصابها وأتعبها،

من أجـل رِقبَتِهـا، فقلتُ لعلهـا

وفي مثل ذلك يقول أبو بكر بن دريد:[5]

أقـول لصاحبي والعيـسُ تَخْدِي
بنا بيـن المُنِفَيـــــةِ فالضِّمَـارِ
تمتَّعْ من شميـمِ عــرارِ نجـدٍ
فما بعـدَ العشيـةــِ من عَـرَارِ
ألا يا حبَّـذَا نفَحَـاتُ نجـدٍ
وريَّـا روْضـــهِ بعـد القطـارِ
وأهلُـكَ إذ يَحُـلُّ الحيُّ نجـداً
وأنت على زمانـك غيـرُ زاري[6]

شهـورٌ ينقضِيـنَ وما شَعَـرْنَا
بأنْصَـافٍ لهــنَّ ولا سِـرَارِ[7]

ويقول أبو العتاهية[8] في عرض مبتكر وخيال خالق بديع وهو يصور البنفسج:

---

[5] وهو أبو بكر بن دريد، الأمالي لأبي علي القالي، الجزء الأول ص: 32.
[6] زاري: عاتب.
[7] (بأصنــاف لهــنَّ ولا سرار) بأواسطها ولا أواخرها

ولا زَورْديـة تزْهُـو بِزُرْقتِهـا

بينَ الريـاض على حمر اليَوَاقِيت

كأنها ورقـــاء القضب تحملها

أوائـل النار في أطراف كبريت

وكأنه بذلك يريد أن يقول قد تكون رائحة الكبريت منفرة، لكن تلوينها في الصورة بديع، حيث يلون زهرة البنفسج بالزرقة، ولكنها ليست زرقة خالصة، وإنما هي زرقة مختلطة بألوان أخرى عدة كالتي نراها في لهيب يتصاعد من أطراف الكبريت، حيث تنعكس أشعة الكبريت على وجوه اليواقيت الحمراء المنتشرة في الروض، فيصبح أمام البصر مجموعة رائعة من الألوان لهذه الزهرة التي تزهو وتختال فوق قضيبها الرقيق على لداتها الحمراوات في الرياض،

ولا عجب أن يكون صاحب هذا العين المبدعة في التصوير واثقا من فنه وقدرته فيسبق الشعراء إلى وصف فرس للرشيد، وكان هارون الرشيد معجبا بذلك الفرس الذي يقال له المشمر، فأمر الشعراء أن يقول فيه فبدرهم أبو العتاهية فقال[9]:

جاء المشمِّرُ والأفـــراسُ يقدُمُها

هَوْنًا على رسـله منها وما انْبَهَرا

---

[8] شذرات الذهب، الجزء الثاني ص: 26 ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ / 6 ص: 250 وما بعدها، طبع دار الكتاب العربي بيروت لبنان،

[9] الأغاني الجزء الرابع ص: 45، طبع دار الثقافة، بيروت لبنان،

وخلَّفَ الريحَ حسْرَى وهي جاهـدةٌ
ومرَّ يَخْتطِفُ الأبصارَ والنظــرَا

فأجزل صلته، وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول في شيئا، فهو كثير الشعر في المناسبا إذ يقول في الشكر على قضاء حاجة، وفي التوسل والاستعطاف وخاصة عندما حبسه المهدي ومن بعده الرشيد، وفي الاقتضاء والاستنجاز أو الاستبطاء، وفي الرجاء أو التذكير بوعد كالذي كان منه عندما وعده الرشيد بتزويجه من عتبة جارية الخيزران وكان يهواها ويشبب بها قوله[10]:

باللّه يا قُوَّةَ العيْنَيْــن زُوريني
قبل الممــات وإلا فاسْتَزِيريني
هذان أمــران فاختاري أحبهما
إليك أو لا فداعي المــوت يدعوني
إن شئــت مت فأنت الدهر مالكة
روحي وإن شئــت أن أحيا فتحييني
ياعتب ما أنت إلا بدعــة خلقت
من غير طين وخلــق الناس من طين
إني لأعجــبُ من حبٍّ يُقرِّبُني

[10] المصدر نفسه ص: 43،

ممن يُباعـــــــــــدُني منه ويُقصيني
أما الكثيــرُ فلا أرجوه منكِ ولو
أطمعتني في قليـــــــــلٍ كان يَكفني

عرف أبو العتاهية بهذا النوع من الغزل العفيف الخفيف، فإنك تلمس فيه السهولة والبساطة التي تراها تنسحب على عباراته التي يسوغها في غير تعقيد أو تركيب أو التواء، فهو يرسلها إرسالا طبيعيا في غير أناة أو روية أو تثقيف أو مراجعة،

فهو شاعر متعدد الجوانب، يتخذ من المناسبات فرصا للابتكار السريع والارتجال الباهر، مطاوعة لرغباته وحاجاته ومتنفسا لنزعاته من حيث إنه يراها كالأرض الخصبة التي ينشر من خلالها آراءه في الناس وبخاصة مذهبه في الحياة، إما في صراحة مباشرة، وإما في إشارة وتلميح يلبسها ثوب التزهيد والوعظ أو ضرب المثل وبناء الحكمة، وغالبا ما كان موضوع الرثاء أو التعزية أو الزهد أصلح المناسبات لذلك،

ويقول أبو بكر بن دريد الأعرابي:[11]
وإني لأَهـواها وأهــوى لِقاءَهـا
كما يشتهي الصـادي الشرَابَ المبَرَّدَا

[11] الأمالي لأبي علي القالي، الجزء الأول ص: 32.

علاقةُ حبٍّ لـــجَّ في زمن الصِّبَا
فأَبلَى وما يـــــزْدَادُ إلاَّ تَجَدُّدَا

فالشعر مهما يكن عقليا فإنه يتشبث دائما بطبيعته الرمزية وأصله الموسيقي الجميل الذي تسمعه حماسة قوية، ونسيبا رقيقا، ووصفا جميلا، ورثاء حزينا، حتى قيل إن الفكرة أصل في النثر والعاطفة مساعد، وعكس ذلك في الشعر حيث تتصدر العاطفة متكئة على حقيقة تسندها وتبعث فيها الصدق والقوة والبقاء، وعلى ناحية الخلاف الشكلية هذه تقوّم المظاهر التي تتراءى في أسلوب الشعر، وفي ظواهر تميزه كمًّا لا كيفاً، أي أنها ترى الشعر بدرجة أسمى مما ترد في النثر الأدبي[12] ولنذكر على سبيل المثال قول ابن أبي مرة المكي:[13]

إن وصفـــوني فناحـلُ الجسـدِ
أو فتشـــــوني فأبيــضُ الكبدِ

أضْعَـفَ وجـدِي وزاد في سقمي
أنْ لستُ أشكُـو الهـــوى إلى أحدِ
آهِ من الحبِّ آهِ مـن كمـــــدِي
إنْ لم أَمُتْ في غـــدٍ فبعـدَ غدِ

---

[12] أحمد الشايب، الأسلوب،
[13] الأمالي لأبي علي القالي، الجزء الأول ص: 32.

جعلتُ كفّي على فـــؤاديَ من
حرِّ الهـــوى وانطويتُ فوق يدِي
كـــــأنَّ قلبي إذا ذكرتكـمُ
فريسـةٌ بين ساعـــــديْ أسد
يَدِي بحبلِ الهـــــوى مُعَلَّقَةٌ
فإن قطعـتُ الهـوى قطعتُ يدِي

كما أن خشونة اللفظ وبداوته واضحة في عدد كبير من القصائد والمقطوعات والرسائل والخطب العباسية[14]، والملاحظ أن الخصائص المنسوبة للشعر العباسي يغلب أن ترتبط بطائفة من أغراض الشعر، كما يحدث أن تقترن بمجموعة ذات صفات مشتركة من الشعراء، نضرب لذلك مثلا لمسلم بن الوليد الذي قال عنه الآمدي أنه أول من أفسد الشعر بالبديع[15]، قوله:

إن كنت تسقين غير الـراح فاسقيني
كأسا أَلَـذُّ بها من فيـــك تَشفيني
عيناك راحي، وريحـاني حديثك لي

14 الأمثلة كثيرة نجدها في مديح بشار بن برد، ومديح أبي نواس وطردياته ، وفي مديح أبي العتاهية من شعراء الحواضر ، أما شعراء الأقاليم والبادية فقد حافظوا على الأسلوب القديم، المثال السائر الجزء الأول ص: 163 وما بعدها،
15 الموازنة: ص: 19 وما بعدها،

ولونُ خدَّيْكِ لونُ الـــــورد يكفيني

وقوله:

ولما تلاقينا قضَى الليـلُ نحبـه
بوجهٍ كوجه الشمـس ما إن له مِثْـلُ
وخالٍ كخالِ البدر في وجه مِثْلِـهِ
قينَا المُنـى فيه فحاجَزَنا البـذْلُ

وقوله:

إذا مسها الساقي أعـارتْ بنانَـهُ
جلابيبَ كالجـاديّ من لونها صُفْرَا
أنـــاخ عليها أغبرُ اللون أجوفٌ
فصارت له قلبا، وصـار لها صدْرا

أبت أن ينال الـــــدَّنُ منَّ أديمها
فحاك لها الإزْبادُ مِنْ دونها سِتْـــرا

فهو في هذه الأبيات وما يماثلها في شعره أنه قد أحاط كل الإحاطة بلون الخمر صرفا أو ممزوجة بالماء، وعملت شاعريته في خلق صور متعددة للون الراح، فهي صافية مضيئة تخلع على بنان الساقي ضوءا ذهبيا أصفر، أو هي إذ يخالطها الماء عقد من لآلىء يرصع الدماليج أو دم يتصبب من نحر جمل فتيق،

فالخمر عند مسلم غالبا ما تأتي في مقدمات مدائحه، وفيها يحاول أن يبسط المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة، فهو شاعر دقيق الحس عميق التصور لما يحب ويهوى،

كما أننا نجد غلبة الأسلوب التقليدي القديم في كثير من قصائد المديح العباسية، وكثرة استعمال الغريب فيها، وشيوع الأوزان القصيرة، والألفاظ السهلة، والعبارات الجارية في الغزل الماجن، والشعر المعد للغناء والميل إلى التعبير السهل والتشاؤم وذم الدنيا واللجاجة في ذكر الموت والحساب والعقاب والثواب في شعر الزهد، وظهور روح الثورة على التقاليد الشعرية الموروثة، والميل إلى الاستخفاف بحدود الأخلاق والدين والعرف والتقاليد، والإكثار والتفنن في استعمال أسماء الخمرة وابتداع نعوتها وأوصاف آلاتها وأدواتها ومجالسها وحوانيتها وسقاتها وندمائها... الخ، في شعر الخمر والمجون وقس على هذا،

ويعد بشار بن برد في طليعة من روجوا لهذا النوع من الشعر بحكم خصب ملكته الشعرية، وله فيها مقطوعات شعرية تغنى فيها طويلا بالخمرة وكؤوسها ودنانها ونَدْمانها وسُقاتها مثل قوله[16]:

ربّ كـأْسٍ كالسلسبيـل تعللْـ
ـتُ بها والعيــون عني نيـامُ
حُبِسَتْ للشُّــراة في بيــت رأسٍ
عُتِّقَتْ عانسًـا عليهـا الخِتامُ[17]
نفحـــتْ نفحةً فهــزّت نديمي
بنسيـــمٍ وانشـقّ عنها الزكامُ
وكـأن المعلـول منهـا إذا را
ـح شَـجٍ في لسانـه بِرْســـامُ[18]
صدمتْـــهُ الشّمـولُ حتى بعيني
ـه انكســـار وفي المفاصل خامُ[19]

16 الديوان جـ / 4 ص: 63
17 بيت رأس: من قرى فلسطين وتشتهر بالكروم والخمر،
18 ولعله يريد بالبرسام هنا أثره وهو الهذيان،
19 أراد بها كناية عن ارتخاء المفاصل فكأنه جعل ما بها من العظام لتثنيها وتكسرها كأنها خام أي طاقات زرع غضة رطبة،

وهو باق الأطـــــراف حيَّثْ به الكأ
س وماتت أوصالـه والكـــــلامُ

فهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذي يشق الزكام، وتأثيرها الجسدي في الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور في العيون وارتخاء في المفاصل، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام،

ولعل هذا الرقي وهذا التطور الذي طرأ على الشعر في العصر العباسي راجع إلى إحياة الجديدة التي أصابت هذا العصر من حيث المظاهر العمرانية الأنيقة والحياة السخية المترفة، وفي حلقات الدرس التي انتظمت حمادا والكسائي وأبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر، وفي مجالس الشعر التي ضمت أبا نواس وأبا العتاهية ودعبلا والعباس بن الأحنف،

ففي هذا المحيط الفكري والثقافي كان الشعراء في نشأتهم يتأدبون على هؤلاء العلماء في البصرة والكوفة، ويغشون الحلقات والمساجد، يأخذون عنهم النحو واللغة ويروون عنهم الشعر القديم، ويستمعون إلى جدلهم ومناظراتهم وأخبار الرواة ورواية الأشعار على أيديهم، وقراءة القرآن والعلم بالسنن، والبصر بمواقع الكلام وبدئه، حتى قوي سوقهم وامتد فرعهم وتفتح زهرهم، فاستقدموهم رجال الحكم والسلطان والسياسة والرئاسة والجاه والمال في عصرهم، فهم بذلك أصبحوا متنوعي الثقافة متزودين بمختلف الحضارات، حتى أنه لما أنشد مسلم بن الوليد قصيدته في مدح الرشيد ووصل في إنشاده إلى قوله:

حسبي بما أدّت الأيـــام تجربةً
سعى عليَّ بكأسها الجديـــدان
دلّت على عيبها الدنيـــا وصدّقها
ما استرجع الدهــرُ مما كان أعطاني

سئل عن البيت الثاني فقال: أخذت معنى هذا البيت من التوراة[20]

إضافة إلى معارف أخرى من آراء ونحل وأفكار ومذاهب، كثيرها أخذت تتسلل إلى حياة الشعر يومئذ، جعلت من بعض شعرائه يتسمون نوعا ما بسمة التخصص في فنون الشعر، فأبو نواس شاعر الخمرة والغلمان، وبشار شاعر الغزل الحسي، ومروان بن أبي حفصة شاعر المدح، وأبو العتاهية شاعر الزهد، ولكنه لم يقف واحد منهم وقفة حياته متخصصا في فن بعينه من الشعر، ولكن الواحد منهم كان يتجه وجهة خاصة ذات طابع فني واضح، وخصائص متميزة في فن واحد أو اثنين، كما اختص أبو العتاهية في فن الزهد الذي به اشتهر،

ومما زاد في تطور هذا العصر وازدهاره طلب الموسقيين والقيان للون خاص من الشعر، حيث أخذت الموسيقا في تطور وتقدم بسبب التسامح اتجاهها وتأثير الفلسفة الإغريقية[21]، والإقبال عليها في القصور والمجالس، وكان أبو إسحاق الموصلي من أول العاملين على هذا التطور بأن صحح أجناس الغناء وميز طرائقه، وكانت

---

20 نهاية الأرب الجزء الثاني ص: 85،
21 تاريخ الموسيقا العربية، فارمر، ص: 124 وما بعدها،

رسائل الخليل بن أحمد في علم الموسيقا علمية تماما في كتابيه: النغم، والإيقاع، كما كانت رسائل الكندي التي لا تقل عن سبع مهمات للغاية، وفيها نظرات دقيقة في موسيقا الفنانين في هذا العصر،

إضافة إلى ما كان عليه الخلفاء من تشجيع على مدارسة العلوم والفنون، ويقول شوقي ضيف "إن الغناء قد توَّع أوزان الشعر في العصر العباسي تنويعا واسعا، فبينما كان يقضي على بعض الأوزان الطويلة المعقدة أو يكاد، كان يُشيع الأوزان الأخرى التي تتلاءم معه من مثل المتقارب والرمل والهجز والخفيف، فإن ألَمَّ بالأوزان الطويلة أخذ ينوِّع فيها بما يحدثه في مشطوراها ومجزوءاتها، أو من اختلف في ضروبها وأعاريضها، وقد فتح الخليل أبواب الزحاف في العروض ليعدِّل الشعراء في إقاعات الأوزان القديمة ونغماتها، وكأن هذه الزحافات خروق في الرُّقُم الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التعديل في الأوزان التي كان يتطلبها الغناء العباسي"،

وما نفهمه من كلام الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه كان يقصد من وراء ذلك إدخاله دراسة الزحاف في العروض حتى يترك دوائره مفتوحة أمام الشعراء وجاء بأوزان مهملة، لأنه شرع أن الغناء بحاجة إلى التجديد في أوزان الشعر،

ويقول شوقي ضيف رغم كل ما أتي به الخليل إلا أن عروضه لم تضبط كل ما عرف في عصورها من أوزان في الشعر العباسي، بل إنا نراها تقصر في ضبط أوزان الشعر العربي القديم، ويدعم كلامه بما ذهب إليه أبو العلاء المعري في قوله:

وقصيدة عَبيد (أقفر من أهله مَحْلُوبُ) وزنها مختلف، وليست موافقة لمذهب الخليل في العروض، وكذلك قصيدة عِدِيّ بن زيد العِبادي:

قد حان أن تصحوَ لو تُقْصـرْ وقد أتى لما عهدت عُصُرْ[22]

ومن ذلك قصيدة المرقش:

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ لو أنَّ حَيًّا ناطقـا كَلَّمْ[23]

فإنها غير مستقيمة الوزن كما يلاحظ صاحب الصناعتين، وقد لاحظ التبريزي أنها خارجة عن العروض التي وضعها الخليل،[24]

وهناك أمر آخر لابد من الإشارة إليه، هو صعوبة التزام الدقة التاريخية عند عرض الخصائص الفنية العامة للأدب العباسي، إذ ليس من السهل تعيين الوقت الذي ظهرت فيه هذه الخاصية أو تلك لافتقارنا إلى المعلومات الموثوقة التي تحدد الأوقات والتواريخ التي ظهر فيها هذا النص أو ذاك، إنما هي خصائص عامة تذكر على سبيل الإجمال لا الحصر، وتوقيتها متعذر لتداخل العصر الأدبي الذي يسبقه والذي يليه ولتعايش جيلين أو أكثر من الأدباء في زمن واحد،

لقد اتفق الباحثون على أن الشعر العربي قد تطور تطورا واضحا في العصر العباسي الأول والعصور التي تلت، وأجمعوا على أن هذا التطور شمل مقومات الشعر العربي الثلاث وهي:

ـ الفنون أو الأغراض الشعرية والأساليب،

---

22 كتاب الفصول والغايات

23 كتاب الصناعتين ص: 3 ، طبعة الحلبي،

24 التبريزي على الحماسة، الجزء الثالث ص: 83، وما بعدها،

ـ الألفاظ أو اللغة الشعرية المعبرة،
ـ المعاني والأفكار والأخيلة والصور،

وكانت الطرق التي اتبعت في شرح معالم هذا التطور منذ ظهور الدراسات الحديثة لتاريخ الأدب العربي في أوائل هذا القرن مسايرة للتقدم الذي طرأ على مناهج البحث الأدبي خلال السنوات الخمسين الأخيرة،

فجرجي زيدان الذي قدم أول دراسة عربية منفصلة لتاريخ الأدب العربي سنة 1911 يقرر أن الشعر في العصر العباسي الأول يختص بسبع ميزات هي:
ـ تطور طريقة النظم، وتقوم هذه الطريقة على حد تعبيره على ثلاثة عناصر هي:
ـ الخطة التي يجري عليها الشعراء في تنسيق المعاني والأسلوب الذي يختارونه للتعبير، ثم اللفظ وبعد وفاته أن يشير إلى التجديدات التي طرأت على أوزان الشعر كما يتضح من تعليقات الدكتور شوقي ضيف على الطبعة الأخيرة من الكتاب [1]،

ـ وثاني المزايا من نظر جرجي زيدان المعاني الجديدة الناتجة من اتساع الخيال بالحضارة وتفتق القرائح لانتشار الناس في الأرض،
ـ والثالثة اقتباس معاني جديدة اقتضاها توسع القرائح والخيال بدخول العلوم القديمة على اللغة العربية واستعمال التعابير الفلسفية والألفاظ العلمية،

[1] جرجي زيدان تاريخ أدب اللغة العربية،

ـ والرابعة هي المبالغة في المدح التي ازدادت لازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء واضطرار الشعراء إلى التزلق والتملق ولا سيما بعد الاختلاط بالفرس،

ـ وخامسها: تكاثر وصف الخمر وظهور الغزل بالغلمان،

ـ والسادسة: الشعر المجوني "أي تولد طبقة من الشعراء أكثروا من المجون في منظومهم وعرفوا بالشعراء المجان ويأتي في مقدمتهم أبو نواس،

ـ والسابعة: والأخيرة هي توسع الشعراء في وصف الرياض والإزهار[1]،

هذه هي الميزات التي ذكرها جرجي زيدان مسترشدا بصورة خاصة بالمستشرق الفرنسي كليمان هوار والمستشرق الإنكليزي المعروف تيكلمن [2] وقد رددتها بعض الكتب والمحاضرات المدرسية مع بعض الشرح والتنظيم ولم يضف أحد شيئا جديدا إلى أن طلع الدكتور طه حسين بالجزء الثاني من كتابه (حديث الأربعاء) فوسع أفاق البحث في خصائص الشعر العباسي ووجهها وجهة جديدة،

ـ جعل طه حسين من ظاهرة الصراع بين القديم والجديد متابعا بذلك الناقد الفرنسي سانت بوف [3] مفتاح الخصائص الفنية للشعر في العصر العباسي الأول وقرر أن هذا الصراع الذي بدأ في العهد الأموي وأدى إلى تطور الغزل، اشتد واحتدم في أواسط القرن الثاني للهجرة، وبرز بقوة في شعر أبي نواس وبعض إضرابه ومعاصريه ومما قاله: (ولكن أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين

---

[1] جرجي زيدان تاريخ أدب اللغة العربية –ضيف في الحواشي.

[2] نقصد تاريخ الأدب العربي بالفرنسية لكليمان هوار، وتاريخ الأدب العربي بالإنكليزية لنيلكسون.

[3] إشارة طه حسين إلى ذلك في حديث الأربعاء وأراء سان يف المقصودة جاءت في كتابه (رسائل الاثنين).

القدماء والمحدثين وما نتائجه الكبرى؟ الحق أني أكاد أعلم ذلك، فقد كان الخلاف قبل كل شيء في اللفظ، ثم في المعنى، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين)[25]،

كان القدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون في اللفظ اختلافا ظاهرا، وكانوا يتخذون اللفظ مقياسا لجودة الشعر، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة، وكلما كان رصينا يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيدا، أي أن جزالة اللفظ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلي كانت المزية الأولى للشاعر، ثم تأتي بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه،

ثم ظهر الخلاف في أول العصر العباسي، فاختلف الشعراء العباسيون، واختلف معهم الأدباء واللغويون في أي الشعرين أجمل وأرقى وأحسن، الشعر الذي يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام في متانة اللفظ ورصانته وبداوته، أم الشعر الذي يتخير الألفاظ السهلة العذبة التي ألفها الناس عامة، لا علماء اللغة خاصة؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف في المعنى، فاختلف الشعراء في معاني الشعر: أتبقى كما كانت بدوية أعرابية، أم تتحضر كما تحضر الناس؟ أتصف الأطلال والخيام والإبل والخيل والسلاح، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن؟ ثم تتناول الشعور الإنساني فتصفه كما كان يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر، بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التي لم يعهدها

---

[25] طه حسين، حديث الأربعاء، جـ /2 ص: 7 وما بعدها.

الأعراب؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد؟

ولعل التحضر الذي شهده العصر العباسي الأول هو الذي دفع بالشعراء إلى استحداث أسلوب مولد جديد، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية، ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال، تختار الكلمات فيه، وكأنما هي جوهر تختار في عقود، إذ تحول الشعراء إلى ما يشبه الصَّاغة، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته في صياغته وسبكه بما يتنخب من الكلمات التي يحسن وقعها في السمع والتي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة،

فكان بشار بن برد في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد، الذي يقول فيه ابن المعتز[26]: (وكان بشار يعد في الخطباء والبلغاء، ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضله ولا رغب عن شعره، وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفى من الزجاجة، وأسلس على اللسان من الماء العذب)، ومما يستحسن من شعره قوله[27]:

أمــن تَجَنِّي حبيب راح غضبانَـا
أصبحتَ في سكـراتِ المـوت سكرانَا

[26] طبقات الشعراء لابن المعتز، ص: 28،
[27] الديوان ص: 116،

لا تعرف النوم، من شـــوق إلى شجن
كأنما لا ترى للنـــــاس أشْجَانَا
أودُّ من لم يُنِلْنِي من مـــــودة
إلا سلامـا يـــردّ القلبَ حيرانَا
يا قومُ أُذني لبعض الحيّ عاشقَـــةٌ
والأذن تعشـــق قبل العين أحيانَا

وقوله[28]:
لم يطـــل ليلي ولكنْ لم أنمْ
ونفى عني الكـــرى طيفٌ ألمّْ
فأهجر الشـــوق إلى رؤيتها
أيها المهجـــور إلا في الحلمْ
حدثيني عن كتـــاب جاءني
منكِ بالـــذمّ وما كنتُ أُذمّْ

ظهر هذا الخلاف وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجا وأكثرها خصبا، لأن أنصار الجديد وعلى رأسهم أبو نواس، أقدموا غير خائفين ولا وجلين، فوصفوا لنا الحياة

[28] المصدر نفسه ص: 78

الجديدة دقيقها وجليلها، مفصلها ومجملها، فجددوا الشعر من ناحية، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى، مما جعل شعرهم يمتاز بالصناعة والرصانة والصفاء والرونق والجزالة والفخامة وقوة البناء، ويأتي في مقدمة هؤلاء مسلم بن الوليد الأنصاري الكوفي وجماعته، كأبي نواس وأبي العتاهية وحماد عجرد، ووالبة بن الحباب، ودعبل، والعباس بن الأحنف، وغيرهم من الشعراء، كما نشأ فيها رجال برزوا في النحو والرواية واللغة، كأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والسكاكي، وحماد، وخلف الأحمر، والأصمعي، وغيرهم كثير،

ووسط هذا الحشد الكبير من العلماء والأدباء والشعراء وأهل الثقافة والفكر أخذ مسلم بن الوليد ثقافته وحصل على أدبه ولون شعره، كما أخذ بشار وأبي نواس، وشب في عهد التحول والتجديد في الأدب والإبداع والابتكار في الشعر العربي، وحمل الراية بعد بشار بن برد مع أبي نواس، فكان من المبرزين في حلْبتهم، ومن المبدعين والمتقدمين في مدرستهم، حيث كانت الكوفة والبصرة في عهده مهدَى الثقافة العربية الإسلامية ومزدهر الأدب والشعر وترف العقل، ونشاط وصفاء النفس وتنوع العلوم وتعدد مظاهر التفكير، وبخاصة في عهد الدولة العباسية، حتى أصبح فيها عزيز الجانب رفيع المكانة لدى الخلفاء والرؤساء، كما كانت له منزلة خاصة وحرمة مرعية، ومكانة ملحوظة بين شعراء عصره، كما كان محبا للحياة شديد التعلق بها، حتى اعتبر مسلم بن الوليد مدرسة جديدة في الشعر العربي في عصره، أو صاحب فن مستحدث له حدود مرسومة وطابع خاص،

هذا كل ما عرف عن الشعر العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذه بعض النماذج من المعاني الجديدة التي ابتدعها شعراء العصر العباسي الأول، وقد رأيت الاكتفاء بها هنا، ولا حاجة بنا إلى الكلام في الأسباب والعوامل التي أمدتهم بالقدرة على ابتكار المعاني والأفكار، كما هو الحال عند بشار بن برد الذي تشيع عنده هذه القدرة على تقليب المعاني والاحتيال للتوليد فيها والتفريع قوله[29]:

وعِيٌّ الفعـــال كعِيّ المقالِ
وفي الصَّمْـت عِيٌّ كعِيّ الكَلِـمْ

فقد جعل العي أقساما، فهو لا يكون في الكلام فحسب، بل يكون أيضا في الصمت حين يكون واجبا ويكون الكلام ثرثرة، بل إنه أيضا يكون في الفعال السقيمة،

وقد كثر الكلام في هذا وكررته الكتب والبحوث التي درست الأدب العباسي عامة أو اهتمت بكبار شعرائه وكتابه، يكفي أن نشير إلى أن اختراع المعاني الجديدة كان من أبرز الخصائص الفنية وأن الإعجاب بهذه الظاهرة كان علما حتى قال ابن جنى: (إن المولدين يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ)[30]،

---

29 الديوان الجزء الثالث ص: 249،
30 ابن جني، الخصائص، الجزء الأول ص: 68

فالاختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والمتنبي وأمثالهما من أصحاب البديع،

وأما الاختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحتري وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد، ولم يتكلفوا بديعا ولا استعارة ولا جناسا،

وقد لاحظ ابن الأثير، أن من الألفاظ ما يحسن استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات، ومما مثل به لذلك كلمة (مُشْمخِرٌّ) الواردة في قصيدة للبحتري يصف إيوان كسرى قوله[31]:

لم يعبْهُ أن بُزَّ من بُسُـــطِ الدِّيـ
ـبـاج، واستُلَّ من سُـتُور الدِّمقْسِ[32]
مشمخِرٌّ تعلوُ له شرفـــاتٌ
رُفِعَتْ في رؤوس 'رضوى' و 'قـدس'[33]

---

31 البحتري: الديوان الجزء الثاني ص: 1160،

32 بُظَّ: سلب، استل: انتزع وأخرج كما ينتزع السيف من الغمد، والديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من حرير ، فارسي معرب، الدمقس: الحرير الأبيض،

33 المشمخر: العالي، ورضوى: جبل بالمدينة ذو شعاب وأودية،

وقال إن هذه اللفظة وردت في خطبة الشيخ ابن نباتة، يذكر فيها أهوال يوم القيامة "اقمطرّ وبالها ، واشمخرّ نكالها" وقد ختم ابن الأثير كلامه عليها بأن قال: "فما طابت ولا صاغت"[34]

كما يذهب ابن الأثير إلى القول: على أن من الألفاظ ما جمع العيبين المخلين بالفصاحة، قبح الجرس وخفاء المعنى، وهذا النوع من اللفظ هو الذي سماه ابن الأثير "المتوعر" ونعته "بالوحشي الغليظ، وقال: (ليس وراءه في القبح درجة أخرى)[35]، وقد جاء ببيت أبي تمام شاهدا له[36]:

قد قلت لمَّا اطلخمَّ[37] الأمــرُ وانبعَثَتْ
عشــواءُ تاليـةً غُبْسًا دهاريسا[38]

وقال فلفظة "اطلخمّ" من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين، أنها غريبة وأنها غليظة على السمع، كريهة على الذوق، وكذلك لفظة (دهاريسا)

34 المثل السائر الجزء الأول ص: 166 ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد،
35 المثل السائر الجزء الأول ص: 163،
36 الديوان : الجزء الثاني صك 256، طبعة دار المعارف مصر 1969 م
37 اطلخمَّ الليل والسحاب : أظلم وتراكم،
38 الدهاريس: الدواهي، وهي صفة من صفات الإبل والناس، لأنه يراد صِفتهُا بالصبر والجرأة على السير، كما يقال للرجل إذا نُعت بالفطنة إنه لداهية، ويروى (عُشْوًا دهاريس) والغبس: الدواهي السود المظلمة،

وربما كان السبب في غرابة الألفاظ من أن الثقافة والبيئة العربيتين باعدت بينهم وبين مدلولها، فقل استعمالها وهجرت، ومن هنا أصبحت غريبة، وثمة من رأي أن قلة وزن الشعر أو القافية هي التي ساقت هؤلاء الشعراء إلى مثل هذه الألفاظ الثقيلة الغريبة، وإلا ما كان قبحها ليخفى عليهم، وهو فرسان الكلام وأعلامه، ومما يؤيد هذا الرأي أننا نعود فنرى هذه الألفاظ الثقيلة الغريبة قد وقعت قافية في شعر أبي تمام وفي أشعار بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري الكوفي، وأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهم كثير من الشعراء المولدين من الذين حذقوا العربية وبرعوا فيها بحيث كان الواحد منهم ينتخب لشعره أنصع الألفاظ وأجزلها وأرشقها وأعذبها مكوِّنًا أصداف شعره وجواهره المتألقة،

الأحوال السياسية والاجتماعية

لا يستطيع الباحث أن يلم بجميع جوانب التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري والأدبي في بحث كهذا لأن طولها الذي زاد عن خمسة قرون جعلها تزدحم بعدد كبير من الأحداث السياسية التي ما زال أغلبها بحاجة إلى البحث الدقيق، فالفترة العباسية نفسها على ما يقول المستشرق برنارد لويس "ما تزال مفتقرة إلى تاريخ شامل" وإذا استثنينا بعض الأبحاث الخاصة الأخيرة، يمكننا القول إن الباحثين ما يزالون يعتمدون على مؤلفات قديمة يفتقر بعضها إلى كثير من عناصر البحث التاريخي الحديث، ويحتاج بعضها الآخر إلى إعادة النظر في عدد من الموضوعات والنتائج والآراء التي توصل إليها،

إن طبيعة هذه البحث واختصاصه بموضوعات أدبية لا يحتاج منا استعراض كل مصادر ومراجع التاريخ العباسي، وعلى من يريد التوسع مطالعة مقال برنارد لويس العباسيون، في دائرة المعارف الإسلامية، وبروكلمان في كتابه، تاريخ الشعوب الإسلامية، أو كتاب تاريخ الإسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن، أو كتاب فيليب حتي، تاريخ العرب، وهذه الأخيرة كتب عامة تمر على العصر العباسي كما تمر على العصور الأخرى مرا سريعا لاهتمامها بالتاريخ الإسلامي بصورة شاملة،

والملاحظ أن مثل هذه المصادر والمراجع لا تعني عناية وافية بشرح الأحوال الاجتماعية والفكرية والأدبية وإن تطرق بعضها إلى ذلك فصار لزاما علينا إذا أردنا التوسع في هذه النواحي أن نرجع إلى الأستاذ أحمد أمين، والمستشرق آدم ميتز، وجرجي زيدان،

وإذا شئنا التوسع يمكننا الرجوع إلى مؤلفات المرحوم الدكتور أحمد كمال زكي، الذي يبسط أمامنا أدب القرن الرابع، وشوقي ضيف، العصر العباسي الأول والثاني، والدكتور عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول والثاني، وآخرون ممن سيرد ذكرهم في ثنايا هذه الدراسة بإذنه تعالى وحسن عونه،

استولى العباسيون على الحكم سنة 132 هـ 750 م بعد ثورة مسلحة سبقها ومهد لها عمل سري منظم تعاون فيه العباسيون والعلويون والفرس، وقد انتهى حكم السلالة الأموية بمقتل مروان بن محمد آخر خلفائها ومبايعة أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية الجديدة، وكانت أولى الظواهر السياسية وأعظمها تأثيرا في السياسة والأدب والاجتماع والفكر انتقال عاصمة الدولة من الشام إلى العراق، وكانت أولى مقامات هذا الانتقال وأبرز نتائجه انطلاق نفوذ الفرس وبروزه كقوة سياسية ضخمة أخذت مكانها بين القوى السياسية الأخرى، ثم اختلفت معها في صراع متعدد النواحي والوجوه، كان له أثرا واضحة في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية،

وقد اتخذ ظهور الفرس على مسرح السياسة كان أولاها التعاون الوثيق مع العناصر العربية الناقمة على الحكم الأموي، ولم يكن هذا التعاون يتجاوز مرحلة نجاح الدعوة العباسية السرية وثورتها العلنية حتى تحول إي صراع خفي للاستئثار بدفة الحكم، وما إن فاز العباسيون بالسيادة ورجحت كفتهم في الجولة الأولى حتى عاد الفرس إلى الخطة القديمة التي قامت عليها الدعوة العباسية، فتحالفوا مع العلويين وراح الطرفان يكيدان للعباسيين،

لقد عكست بعض الأحداث في خلافة السفاح والمنصور هذا الصراع الخفي كإقصاء الأول وزيره أبا سلمة الخلال وبأن بعد ذلك في الرسائل المتبادلة بين أبي مسلم الخراساني والمنصور. وخرج الصراع إلى العلن والعنف بين العلويين والفرس من جهة والعباسيين من جهة أخرى في ثورة ـ العلويين في الحجاز والبصرة وفي عملية القضاء على أبي مسلم الخراساني أيام المنصور ـ وظهر أيضا وبصورة عنيفة في ثورة المقنع وغيرها من الثورات الفارسية الصغيرة والكبيرة ثم في ملاحقة دعاة الزندقة والإلحاد أيام المهدي،

وعاد إلى الظهور بصورة أخرى بعد استفحال أمر البرامكة أيام الرشيد فلما ضرب الرشيد ضربته ورجحت كفة العرب عاد الصراع إلى أشده غداة وفاته في الفتنة المسلحة بين الأمين والمأمون ولكن دعاء المأمون لم يسمح للفرس بتحقيق مطامعهم الكبرى وأن فسح لهم مجالا أوسع في الوزارة والحجارة والولاية، فاحتفظت الخلافة العباسية بهيبتها وسيطرتها ووجهها العربي طيلة سنوات حكم المأمون، حتى إذا جاء المعتصم تحرك الفرس من جديد فقام بابك الخرمي بثورته العنيفة في إيران

وحاكت العناصر الفارسية في بغداد مؤامرة جديدة تزعمها الافشين قائد المعتصم، وانتصر النفوذ العربي مرة أخرى لكنه فتح الباب هذه المرة لعنصر جديد تمثل في عساكر الأتراك الذين عظم أمرهم أيام المتوكل واستطاعوا أن يكونوا قوة لعبت بقدرات الخلافة والخلفاء وأشاعت الفوضى والاضطراب في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على الأخص، وكانت تلك القوة الأعجمية الجديدة مسؤولة عن المصائب والمشاكل المحن والمضاعفات السياسية الخطيرة التي رسمت خصائص العصر العباسي الثاني، أي العصر المحصور بين مقتل المتوكل على يد الأتراك سنة 247 ودخول البويهيين بغداد عام 334هـ،

إن هذا العرض السريع للحالة السياسية في العصر العباسي الأول يشير إلى أبرز الأحداث وأكثرها يدل على استمرار الصراع بين العرب والفرس، ولم يقتصر هذا الصراع على السياسة بل دخل في الاجتماع والأدب والدين، فصار أبر خصائص هذا العصر، وإذا كان الجانب الحربي والسياسي والديني منه مصدر تخريب وفتن وانقسام ومحن، فلا ريب أن جوانبه الاجتماعية ونتائجه الفكرية والأدبية كانت عوامل تقدم وازدهار، ظهر في نمو الحضارة الإسلامية وما اشتملت عليه من نهضات فكرية وأدبية ولغوية واجتماعية،

أثر الترجمة في الأدب العربي

لقد كان أدباء العرب ذوو الأصل الفارسي من مثل ابن المقفع، وبشار بن برد، وأبي نواس، أبرع وأكفأ في نقل وتمثيل الأخيلة والاستعارات الفارسية من أدباء العرب ذوي الأصل الرومي، من مثل أبي تمام وابن الرومي في نقلهم وتمثيلهم الأخيلة والاستعارات اليونانية، وأول من اشتهر بالترجمة في العصر العباسي الأول هو (ابن المقفع) فقد ترجم على عهد أبي جعفر المنصور، كتب أريسطو المنطقية الثالثة، وتاريخ الفرس، وكتاب كليلة ودمنة، وهو أول من ترجم من الفارسية إلى العربية، وقد كان من أثر هذه الترجمة والتعريب دخول الألفاظ الأعجمية المعربة والدخيلة في الأدب العربي وبخاصة الشعر، وقد استسيغ بعضها واستهجن الآخر، لقبح جرسه أو غموض مؤداه أو كليهما معا، وقد ينطبق هذا على الدخيل أكثر من المعرب، لأن المعرب في تركيبه لا يختلف عن المعرب في شيء،

وظهر امتزاج الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية، نتيجة الترجمة في شعر العباسيين، فقد أخذوا يدخلون الفلسفة والعلوم والفنون في أشعارهم، ولا سيما أبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري، وقد ثارت ثائرة النقاد في هذه المرحلة مستهجنين (الشعر المثقف) الجديد ومن هؤلاء النقاد الآمدي، إذ قال: وليس الشعر عند أهل العلم

إلا حسن التأتي وقرب المأخذ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها.... قالوا: وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة، وكانت عبارته مقصرة عنها، ولسانه غير مدرك لها، حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة اليونان، أو حكمة الهند وأدب الفرس...قلنا له: قد جئت بحكمة، أو فلسفة، ومعاني لطيفة حسنة، فإن شئت دعوناك حكيما، أو سميناك فيلسوفا، ولن لا نسميك شاعرا، ولا ندعوك بليغا، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب، ولا على مذاهبهم)[39]

وقد خفف ابن رشيق القيرواني من تطرف هذا الرأي فقال:(والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منها فيقدر، ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متكأً واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له، وبني عليه، لا ما سواه)[40]

ومن آثار الترجمة أيضا ظهور كتب تحاكي الكتب المترجمة، فكتاب (كليلة ودمنة) المترجم عن السنسكرتية مثلا ظهر ما يضاهيه في كتاب "الصادح والباغم" لابن الهبارية، وكتاب ابن عربشاه: "فاكهة الخلفاء، ومناظرة الظرفاء" ويذكر صاحب كشف الظنون "أن أبا العلاء المعري وضع كتابا اسمه"القائف" على غرار "كليلة ودمنة" وهو في ستين كراسة ولم يتمه، وان له "منار القائف" يتضمن تفسيره في عشر كراريس، وقد نظمه بعضهم شعرا كابن اللاحقي وابن الهبارية في كتابه "نتائج الفطنة"

---

[39] الموازنة : 1 / 400 - 401،
[40] العمدة : 1 / 128،

ومهما يكن من أمر فإن حركة الترجمة في أزهى عصور العربية حفظت الشيء الكثير من التراث الإنساني، ولولاها لضاع علم كثير، وشيء غير قليل من طب اليونان وفلسفتهم، ولا سيما طب جالينوس وفلسفة أرسطو،

وجدير هنا أن نذكر أن الترجمة تناولت أعدادا كبيرة من الكتب في فروع مختلفة من المعارف، ونشطت نشاطا وصل إلى ذروته في أيام المأمون[41]، ذلك أن المنصور كان اهتمامه بالنجامة والطب خاصة، وقلما اهتم بالنقل لانشغاله بمحاربة الزنادقة، ونقل في أيام الرشيد كتاب المجسطي في الفلك، أما المأمون فاستحضر كثيرا من الكتب من ملوك الروم، واختار لها مهرة التراجمة، وشجع بالأموال والمناصب على إتقان ترجمتها يقول صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم[42](ثم نهض الناس على قراءتها، ورغبهم في تعليمها، فنفقت سوق العلم في زمانه)،

وصاحب نشاط الترجمة نشاط آخر في إقبال الناس على قراءة الكتب المترجمة، وأخذ العلماء والأدباء والشعراء يفيدون منها في شتى العلوم والفنون، وكان ذلك عصر نشأة العلوم الإسلامية، حين وضعت مناهج العلم وأصول الأدب، وترجم الكثير من حكم الهند في عهدي المنصور والرشيد، ترجم بعضه على الترجمة الفارسية، وبعضه الآخر عن السنسكريتية مباشرة، وأخذ الكثير من الأقوال في الحكمة الأخلاقية والسياسية من قصص الهنود وأساطيرهم مثل قصص كليلة

41 الفهرست لابن الندي، وأخبار الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وغيرها من الكتب التي هذا النشاط الفكري يومئذ،

42 صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص: 65 وما بعدها،

ودمنة وغيرها التي نقلها عن الفهلوية ابن المقفع أيام المنصور،[43] ويذكر جولدتسيهر أنه في القرن الثاني من الهجرة نقلت مؤلفات بوذية إلى الأدب العربي[44]، وأن منها ما كان فيه ملل الهند وديانـاتهم ، وترجم ليحيى بن خالد البرمكي، مما كان له أثر كبير في مجالس الأدباء والمثقفين،

[43] المصدر السابق ص: 67،

[44] جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ، طبعة القاهرة 1959هـ

أثر الفرس في الحياة العقلية

وهنا لا بد أن نؤكد أن تغلغل الفرس في السياسة والثقافة والاجتماع لا يجيز لنا وصف الدولة العباسية بأنها كسروية فارسية، ونعْتِ العصر العباسي الأول بأنه عهد انحسار النفوذ العربي وانتصار النفوذ الفارسي استنادا إلى اشتراك العنصر الفارسي في الثورة العباسية وتمكنهم في الوزارة والدولة، وعلى نشاط الكثير من الموالي في ميادين الثقافة والأدب بصفة عامة، وقول الجاحظ "...دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعجمية"[45] ،

ويقول أحمد أمين رحمه الله: "ولكن إلى أي حد غلب العرب؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي؟"

ولكننا نرى غير ذلك، فالخلفاء العباسيون عرب هاشميون، ولو من قبل الأب وهم يفخرون بذلك ويعدونه من أكبر مناقبهم، وهم إن حفظوا الفرس معونتهم فلم ينسوا عربيتهم، ولما شعروا أن الفرس زاحموهم في سلطانهم، نكلوا بهم كما نكل المنصور بأبي مسلم الخراساني، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل،

فالفرس في العصر العباسي لهم نفوذ كبير ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب، حقا لقد كانت أعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس، ولكن كان الخليفة

---

[45] سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي ص: 153 وما بعدها،

عربيا هاشميا، وكان له قواد من العرب كما كان له قادة من الفرس، وكان له ولاة من العرب، وولاة من الفرس،

لكن تغلب العنصر الفارسي أتى متأخرا، ولم يقصر إليه مؤسسوا الدولة العباسية الذين استعانوا بهم على غرضهم السياسي، وقد وجد الفرس أن من أسباب التقدم في هذه الدولة العربية الامتياز في العلم بلسانها، فتعلموا العربية وبرزوا فيها وكان منهم صفوة الشعراء والكتاب والمؤلفين، وبهذا نازعوا العرب في أول مظهر لهم بهذا اللسان، ولعل ترخي العرب في هذا الباب في هذا الباب كان من أهم الأسباب التي مهدت لسيادة هذه العناصر الأجنبية في وقت كان العلم والثقافة هما الطريق إلى التفوق بين العرب والعجم على السواء،

ولكن الفرس لم يكونوا العنصر الوحيد في المجتمع العباسي وإن كانوا أقوى عناصره وأكثرها عددا، إذ كان من الأنباط والسريان والهنود الروم، وقد أدى امتزاج هؤلاء بالعرب في بداية العصر إلى فوائد كبيرة أخرى ولا سيما السريان النصارى الذي يعود إليهم أكبر الفضل في نقل اللغة المعرفية اليونانية وترجمة كتبها الطبية والفلسفية إلى اللغة العربية،

وهنا لا بد من إلفات النظر أن دراسة الأحوال الاجتماعية لا يقتصر على استعراض الأجناس والقوميات واختلاطها ببعضها، بل علينا أن نهتم أيضا بدراسة النظام الاجتماعي العربي نفسه ومعرفة عناصره ومقوماته الأساسية،

وإذا نظرنا إلى المجتمع العربي الإسلامي، من هذه الناحية وجدناه هو الآخر ينقسم إلى بدو وحضر، ولاحظنا أن هذا الاختلاط أو هذا الامتزاج بين البداوة والحضارة، والذي كان على أشده في المدن الكبيرة كالبصرة والكوفة، لقد كانت فيه القيم البدوية والعادات القبلية ذات نفوذ عظيم في هذه المدن طيلة القرن الأول والثاني، حيث كان الأمويون ومن بعدهم العباسيون يغذون هذا الصراع القبلي ويشجعونه لأسباب وأغراض كثيرة، وكان واقع الحال نفسه يدفعهم ويشجعهم على انتهاج هذه السياسة،

وكان من نتاج هذه العصبيات القبلية في الأدب، أن نرى في هذا العصر أناسا ينزعون إلى الفخر في النسب العربي والولاء العربي، حتى لترى أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسبا عربيا فيزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس[46]، ورأينا أكثر شعراء الموالي يعلنون ولاءهم صراحة ويفخرون بانتسابهم للعرب، كما افتخر بشار بن برد الفارسي الأصيل زعيم المحدثين بانتمائه لبني عقيل، وهو يعلل إتقانه العربية بنشأته في هذه القبيلة وتبدِّيه فيها أعواما طويلة حيث يقول:

(ولدت ههنا في البصرة ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت (دخلت البادية) إلى أن أدركت (بلغتُ الحلم) فمن أين يأتيني الخطأ)[47]، وأبو العتاهية بولائه لعنزة، ووالبة بن الحباب لانتسابه لبني أسد[48]،

---

46 الطبري الجزء التاسع ص: 282،

47 الأغاني الجزء الثالث ص: 149 ، طبعة دار الكتب،

48 ضحى الإسلام الجزء الأول ص: 36 وما بعدها،

ويقول أحمد أمين رحمه الله[49]: (..فتغلب العنصر الفارسي أتى متأخرا، ولم يقصد إليه مؤسسوا الدولة الذين استعانوا بهم على غرضهم السياسي، وقد وجد الفرس أن من أسباب التقدم في هذه الدولة الامتياز في العلم بلسانها، فتعلوا العربية وبرزوا فيها وكان منهم صفوة الشعراء والكتاب والمؤلفين، وبهذا نازعوا العرب في أول مظهر لهم بهذا اللسان)،

وذهب رحمه الله بعيدا في تحليله عن نتائج اختلاط العرب بالعجم وامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأخرى موضحا أثر ذلك كله في الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية معتمدا على جهوده الخاصة ومسترشدا بما كتبه المستشرقون[50] في هذا الباب، ويقول: (..فلئن كانت الثقافات الأجنبية في العلوم واضحة الأثر فأثرها في الأدب خفيف، ولو كان شديدا قويا لأدخلوا على بحور الشعر بحورا فارسية أو يونانية، ولتحرروا أحيانا من القافية ولأدخلوا ضرب الشعر القصصي والتمثيلي، ولرسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة، فلم يتقيدوا ببكاء أطلال ولا وقوف على ديار ولهجروا الغزل الطويل، ولفعلوا كثيرا من أمثال ذلك، ولحدثت ثورة في الأدب والشعر، كما حدث في العلوم الأخرى، نعم حدث تغيير من دخول بعض الفنون الشعرية واصطباغها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك، ولكنه تغيير خفيف لا يكاد يرى إلا بالمجهر)[51]،

ونحن لا نناقش رأي المرحوم أحمد أمين ولا أحكامه بل نكتفي بالقول بأن الشعر الفارسي لم يكن له كيان واضح يومئذ، وإن وجد منه شيء فلم يكن بذاك

---

49 المصدر نفسه، ص: 35 وما بعدها،

50 بروا ون، تاريخ الأدب الفارسي،

51 المصدر نفسه ص: 378 وما بعدها،

المستوى الذي يمكنه من التأثير في الشعر العربي، وهو أرقى ما يملكه أدبهم الدنيوي،

لقد كان للفرس حقا حكم وأمثال وتاريخ وقصص فاقتبسها الأدب العربي وحاكاها، وكان لهم علم وتمرس في التنظيمات الإدارية والاجتماعية فاستعارها العرب وطورها، وكان لهم تقدم وتظرف في الحياة المادية الحضارية، كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن والفرش والمجلس والمحفل وغيرها من لوازم العيش الأخرى، فاكتسب العرب ذلك وفرضه منطق الحياة عليهم،

وقد حقق هذا التمازج وهذا الاختلاط تحت تأثير هذا التلوين العقلي الجديد ضروبا من الرقي يستحق الإعجاب في إيضاح التطور الذي طرأ على الصياغات الفنية للشعر العربي يومئذ خلال القرنيين الثاني والثالث الذي سماه شوقي ضيف رحمه الله بمذهب التصنيع الذي يعتمد على الزخرف والزينة ويرى أصحابه أن الشعر حِلي وترصيع وبديع، وقد مثله مسلم بن الوليد ثم أبو تمام وابن المعتز[52]،

أما الثالث فهو مذهب التصنع الذي سيطر على الفن الشعري بعد ذلك واعتمد على التطرف في التكلف والإيغال في التعقيد والزخرفة، ولم ينس شوقي ضيف وهو يبسط تفاصيل تطور الصياغة الفنية في فنون الشعر وأغراضه وموضوعاته وأساليبه وأفكاره ومعانيه، أن يؤكد أن هذا التطور ضئيل وأنه لم يتجاوز حدود الشعر التقليدي،

---

[52] شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، مطابع دار المعارف بمصر 1969م ،

والحق أن كلا من طه حسين واحمد أمين وشوقي ضيف لم ينفردوا بهذا الرأي لأن الذين استخفوا بالتطور الذي جرى للشعر العربي واستضعفوا قيمة التجديد الذي طرأ عليه كثيرون، ويأتي في مقدمتهم فيليب حتي الذي يعترف من جهة بظهور بواعث جديدة حملت الشعراء على الانحراف عن الأسلوب العربي القديم وسلوك طريق جديد في أشعارهم، وأنيس المقدسي الذي يقول - إذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولد فلا شك أنك ستجد في الأخير أثر التقدم ظاهرا للعيان، على أن ذلك لم يبلغ مبلغا يخرجه عن المناهج التي اختطها الأقدمون، ويستدل بفن الوصف ويؤكد اتساعه وتعدد موضوعاته في ظل الحضارة العباسية يستدرك بغتة فيقول: ولا ينكر أن المولدين فاقوا الأقدمين في ذلك ولكنهم لم يبتدعوا أساليب جديدة تجوز لنا أن نقول أن الشعر طرأ عليه تطور كبير،

ومن أبرز الباحثين الذين استدركوا أهمية ومدى التطور الكبير في شعر القرنيين الثاني والثالث، هم الذين قاموا بدراسات واسعة لشعر هذا العصر عامة أو للإنتاج الشعري في مراكزه الثلاثة الكبيرة بغداد والبصرة والكوفة، الدكتور طه الحاجري، والدكتور الجواري، والدكتور أحمد كمال زكي، ثم الدكتور محمد مصطفى هدارة، ويمكن أن نضع مع هؤلاء عددا من الذين كتبوا بحوثا خاصة ببعض كبار الشعراء، كبشار بن برد، وأبي نواس، وأبي العتاهية، وصريع الغواني، وأبي تمام والبحتري ممن سيرد ذكر مؤلفاتهم في ثنايا هذا التأليف،

وبالتالي فإن عوامل التطور والتجديد هذه قد قضت بنشوء فنون جديدة كالشعر التعليمي، وشعر المجون والغزل وتطوير أغراض أخرى كانت قبل ذلك

صغيرة وضيقة، إلى فنون مهمة ذات نفوذ شعري كبير كوصف الخمر الذي كان يتطفل على الفنون الأخرى، حيث صار عند أبي نواس وأضرابه فنا كبيرا استقل بنفسه واحتل مكانا خاصا به في الدواوين الشعرية، وانفرد بخصائص تميزه عن الفنون الأخرى، كشعر الزهد الذي كان ضئيلا متفرقا ضائعا بين الفنون الشعرية الأخرى، ثم صار عند أبي العتاهية وأمثاله فنا واسع النفوذ، تميز بطابع خاص وبمجموعة أخرى من الخصائص والعلامات الفارقة، وكان تطور واتساع هاذين الفنيين (الخمريات والزهديات) أبرز الظواهر الأدبية في القرن الثاني للهجرة، وحدث للفنون الأخرى ما يشبه أو ما يقارب من هذا التحول، فتعددت اتجاهاتها وتغيرت موضوعاتها ومعانيها وأساليبها بالتدرج ودون أن تحدث الضجة التي أثارها شعر الخمر والمجون، أو شعر الزهد، ولكن مظاهر التطور والتجديد في هذه الفنون لم تكن أقل خطرا مما حدث في الفنين الأخيرين،

وبذلك نرى ومن خلال دراستنا لهذه المظاهر التجديدية التي طرأت على الشعر في هذا العصر، أنها تنقسم إلى قسمين:

ـ الأول منها يتصل بالموضوع والفكرة،

ـ والثاني يتعلق بالصورة والأسلوب،

وسنحاول إعطاء وجهة نظرنا فيما جد في كل فن من موضوعات وأفكار متناولين فنون الشعر واحد بعد الآخر، ومن الجدير بالذكر أننا أشرنا في دراسة سابقة، أن الشعر قد تقسمته ثلاث اتجاهات:

ـ الأول: اندفاع في التجديد وافتتان بالحضارة وبالحياة الجديدة ومحاولة جاهدة للتخلص من القديم والانقلاب مما يتصل به من العرى، وقد تجلى هذا الاتجاه

وساد وحاول أن يتحكم في الشعر وأن يخضعه له في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة،

ـ والثاني: كان تأثيرا معتدلا بالحضارة حيث أخذ منها بمقدار ولم يندفع في التجديد الثائر اندفاع السابق، وكان هذا الاتجاه يحظى برضى السلطان وذوي الحكم والجاه ويتمتع بالتأييد الروحي من الخلافة، لأنه كان في حقيقة أمره محافظة على التقاليد العربية التي كان الخلفاء العباسيون لا يودون أن يفرطوا فيها، وهو في الوقت ذاته مجاراة للحياة الحضرية في ذوقها وفي أسلوبها الذي يتميز بجمال المظهر وتناسقه ورونقه، وكان هذا الاتجاه أيضا ثمرة من ثمار الأتعاب والمدارسة لقديم الشعر العربي ومأثوره والتنقيب عن مواطن التجميل الذي يوائم حياة الحضارة فيه،

وأما الاتجاه الثالث في نظرنا أن ما يراه بعض الباحثين من أن هذا الاتجاه أو هذه المذاهب الأدبية كما يسمونها، يمكن إرجاعها إلى مذهبين أساسيين، مذهب القدماء ومذهب المحدثين أو المولدين، ومن أهم الخصائص التي تميز بها هذا الاتجاه أو ذاك من الوجهة الفنية هي:

أ ـ اقتحام الشعر مجالات جديدة كالحياة العقلية التي تأثر بها وألزم نفسه التعبير عنها، فاستحدثت فنون جديدة كالشعر التعليمي، كم أدخلت في الشعر أساليب التعبير عن المعارف الجديدة، كاستعمال المصطلحات والفلسفة والتأثير بطرائق المتكلمين وتجارب الحياة بصورة عامة،

ب ـ تحلل الشعر من بعض القيم الاجتماعية كفن الهجاء الذي أسف فيه الشعراء حيث جعلوه فنا يقوم على الهزء والسخرية والإضحاك، بعد أن كان يقوم على الإيلام والإيجاع،

ج ـ إقبال الشعراء على الجانب الذاتي في الشعر، فأكثروا من وصف الخمرة والحديث عن الشهوة في الغزل، ثم الانحراف إلى الغزل المذكر،

د ـ تحول القصيدة من تعدد الموضوعات الذي أثر نظامها القديم إلى الاقتصار على موضوع واحد في الغالب، وأدى ذلك إلى أن تقصر القصيدة ولا تصلح للإنشاد والإلقاء في المحافل، بل أصبحت تصلح لمجالس اللهو والغناء والهزل والعبث فقط،

هـ ـ تحلل القصيدة من أسلوب الشعر القديم وجنوح لغتها إلى السهولة وانسياقها في تيار الحياة الجديدة في الثقافة وفي المعرفة،

ولا ريب في أن الذي يميل إلى توسيع البحث في هذا العصر وما أصبحت عليه موضوعات الشعر من تطور وتجديد، يحتاج إلى وقت حتى يتمكن من الكشف عن الدوافع والظروف الاجتماعية والسياسية وبخاصة الجانب الحضاري الذي وصلت إليه الخلافة العباسية يومئذ، بإمكانه أن يضيف تفاصيل كثيرة أخرى إلى ما ذكرناه،

والحق أن اختلاف أساليب الباحثين في معالجة هذا الموضوع، يريك دارس الشعر العباسي ولا سيما الباحث المستجد أو الطالب الدارس، وقد لاحظ على هذا الجانب محمد مصطفى هدارة الذي قام بدراسة اتجاهات الشعر في القرن الثاني دراسة واسعة، فبعد أن أكد أن إطار الاتجاهات الموضوعية كان جديدا وبعيدا عن الإطار الجاهلي القديم ومن كلامه قوله:

(وقد حاول الباحثون المحدثون أن يحددوا لنا هذه الاتجاهات العامة فخلطوها بخصائص الشعر العباسي واتجاهاته الموضوعية، ومع ذلك نجد عند كل منهم ناحية تعتبر اتجاها عاما في شعر القرن الثاني ـ فنرى جرجي زيدان مثلا يضع أيدينا على

ناحية، إطلاق الفكر من القيود التقليدية ـ ونجد نكلسن يصور لنا هذه الاتجاهات تصويرا عاما مبهما مثل الخيال الحسي وسمو التعبير وعمق المشاعر ورقتها والأفكار الغنية، وكل ذلك يراه نتيجة التأثير الفارسي، ثم يرى كاتجاه عام أيضا، أن الشعر في القرن الثاني كان صدى قويا لهذا العصر)

وما نخلص إليه من قول، هو أن تلك الاتجاهات العامة التي كانت تظلل الشعر في القرن الثاني سواء في موضوعه أم في صورته، من حيث التعبير عن الذات، والاتجاه الواقعي، والشعبي، والتسلية والترفيه، ثم الاتجاه الإنساني، كانت أعمق مما ذكره الباحثون المحدثون بكثير وأوفر دلالة على التطور الكبير الذي حدث في شعر هذا القرن وعلى حركة التجديد القوية التي غيرت كل شيء فيه،

وفيه أصبح الشعراء يلتفتون إلى أنفسهم، يفتشون في حناياها عن مشاعرهم وأحاسيسهم وعكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيبهم وتفتح لهم مغاليق أسرارها، فلم يعد تغزلهم مجرد وصف حاملا براءة مثالية في جمالها وفتنتها، ولم يعد وصفهم لمظاهر الطبيعة بعيدا عن مشاعر نفوسهم وأحاسيسهم بل اندمجوا في تلك المظاهر اندماج الألفة والمشاركة، وكانوا يقيسون حالات نفوسهم بحالاتها ويقرنون خفقات قلوبهم بخفقانها،

أما الاتجاه الواقعي يقصد به أن شعراء القرن الثاني كانوا بحق يتجهون إلى تسجيل أحداث عصرهم في أمانة وصدق، فكان شعرهم صدى قويا للحياة في ذلك العصر في شتى نواحيها،

وأما الاتجاه الشعبي فإننا نقصد به اتجاه الشعر إلى الحياة الشعبية بعيدا عن بلاط الخلفاء والسلاطين والأمراء التي طالما كان الشعر مرتبطا بها،

وبذلك نرى أن أكثر الباحثين يؤكدون أن هناك تطورا قويا واسعا قد حدث في الشعر العباسي ويستدلون على ذلك بتوسع الفنون والأغراض التقليدية شكلا ومضمونا، حتى بات الفرق عظيما بين ما كانت عليه تلك الفنون في الجاهلية والإسلام وبين ما انتهت إليه في العصر العباسي،

توسع المعاني وتزايدها وتعقدها بتأثير العلوم العقلية

نقصد بالعلوم العقلية علم الكلام والفلسفة والفقه والعقائد والمذاهب والنحل التي كانت مناهجها وأفكارها ومذاهبها تنشر وتتوسع وتتسرب إلى عقول الشعراء والمثقفين فترتفع مستوياتهم الفكرية وتكسبها أبعادا ومضامين جديدة، وقد واكبت هذه الظاهرة تطور وارتقاء الحياة الفكرية وازدهار العلوم العقلية، وكان لذلك أسباب وعوامل أسهب في تفصيلها المؤرخون كانتقال الحكم إلى العراق، وتوسع المدن، وتحضر الحياة الاجتماعية والاقتصادية وامتزاج واحتكاك الأجناس والقوميات، وهضم التراث الفلسفي اليوناني المترجم والآداب الفارسية والهندية والسريانية وبقايا الثقافات والحضارات القديمة التي توارثها سكان وادي الرافدين،

لقد غيرت هذه العوامل المناخ العقلي أو الفكري العام، فكان من الطبيعي أن تتسع عقليات الشعراء والكتاب وأن يعكس هذا الاتساع من الشعر والنثر، وقد جاء التأثير المباشر عن طريق العلوم العقلية ولا سيما علوم الكلام والجدل والفلسفة والفقه فدخلت مصطلحاتها وألفاظها في لغة الشعر وتسربت مناهجها وأفكارها إلى مضمونه، وقد تفاوت نصيب الشعراء من ذلك تبعا لعلاقاتهم بالأوساط العلمية ومدى احتكاكهم بها، لذلك كانت هذه الظاهرة أسبق وأوضح عند شعراء البصرة التي نافستها الكوفة وبغداد في هذا المضمار، وكانت أهم وأظهر من شعر المعتزلة والمتكلمين والفقهاء والزهاد كما ظهرت بعد ذلك بوضوح في شعر الكتاب. فلما

انتشر العلم وتعددت مراكزه الكبيرة انتشر التأثر بها في شعر الشعراء ونتاج الكتاب عامة وتعددت أشكال هذا التأثر،

فبشار بن برد الذي عده الجاحظ[53] من خطباء الأمصار وشعرائهم والمولدين منهم، نشأ في البصرة وأخذ يخالط علماء الكلام، فصاحب واصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة، وأعده ذلك لأن يتصل بآراء الزنادقة التي كان يرد عليها واصل وغيره من المتكلمين، وأصحاب الكلام، حتى بات ربيبا لهم في أخذه عنهم قدرتهم في بسط الأدلة وتفصيل الأفكار وتفريعها وتشعيب المعاني وتشقيقها،

كما أخذ عن الفرس حكمهم وأمثالهم، حيث جند نفسه للرد على الفرق الأخرى ولو وصلت إلينا أرجوزته لأغنت ديوان شعر الاعتزال، وكانت شعرا مذهبيا واضحا لفرقة المعتزلة، ولعل هذه الأرجوزة هي التي عناها ابن النديم حين ذكر عنه بأنه (نقل من الكتب من معانٍ شتى إلى الشعر، منها الرد على النصارى، اليهود، الخوارج، وغيرها)[54] والتي نظمها تحديا لعقبة بن رؤبة التي أولها[55]:

ياطَلَلَ الحيِّ بـذات الصَّمْـدِ

باللهِ حـدِّثْ كيف كنتَ بعـدي[56]

أوْحَشْتَ من دعْدٍ وثُؤْيٍ دعـدِ

---

53 البين والتبيين، 1 / 49

54 الفهرست لابن النديم(ت 385 هـ) ص: 230.

55 الديوان: ج / 2 156. "الطاهر بن عاشور ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

56 ذات الصمد: مكان في ديار بني يربوع، الطلل: الأثر الباقي من الديار، وهو بذلك أيتها الأطلال الدارسة (بذات الصمد) حدثينا عن أصحاب تلك الديار وعن الذين جاءوا من بعدهم،

بعد زمان ناعمٍ ومـــــــــرْدِ[57]

نلهو إلى نور الخُـزامَى الثَّعْـدِ

في زاهِـرٍ من سبْـطٍ وجعـْدِ[58]

ما زال من حرْجِ الصبا في رنْـدِ

يختـال في ماء النّـدَى المنـدِّي[59]

حتى اكتسى مثلَ عيون البُــرْدِ

روضـاً بِمَغْنَى واهِبِ بْن فِنْـدِ[60]

وفيها يقول[61]:

أهـدى له الدهـرُ ولم يستهْـدِ

أفْوافَ أنْوارِ الحَداء المُجْـدي[62]

---

57 النؤي: مجار المياه، المَرْدِ : الجريئ المقدام، وهو يخاطب الديار التي أصبحت أطلالا بعد رحيل دعدع عنها،.

58 الثعد: الرطب، وسبط: طليق الشعر،، والجعد: القصير الشعر،

59 الندى: بلل الطلل ينزل في الرياض صباحا، ، والمندي: الذي يُبل غيره، وذلك من قوة ابتلاله.

60 الفند: مكان في سطح الجبل يقصده الناس للتنزه،

61 الديوان: جـ/ 2 ص: 158.

62 الأفوف: الأنوار، والمجدي: الجديد الصنع،

يلقَى الضُّحَى ريحانُـهُ بسجْـدِ
بُـدِّلتْ من ذاك بُكًى لا يجـدي[63]
واهاً لأسمـاءَ ابنـةِ الأشـدِّ
قامـتْ تَراءَى إِذْ رأتْنِي وحْـدِي[64]
كالشمس بين الزِّبْـرِجِ المنْقـدِّ
سُلطـانَ مُبْيِضٍّ على مسْــوَدِّ[65]
ضَنَّـتْ بخدَّ وَجَلَتْ عن خـدِّ
ثم انْثَنَتْ كالنفـس المُرْتَـــدِّ[66]
الحُـرُّ يُوصَى والْعَصَـا للعبْدِ
وليس للمُلْحـفِ مثلُ الــرَّدِّ[67]

ويدخل في نسيجها بعض الحكمة فيقول[68]:
وصاحبٍ كالدُّمَّـلِ المُمِـدُّ

---

[63] ومعنى قوله،" يلقَى الضُّحَى ريحانُــهُ بسجْـدِ" أنه أراد أن الريحان إذا اشتد عليه حر الشمس انحنى، لأنه لين لا يثبت على الحر لرقته،
[64] واها : كلمة تقال عند التعجب من طيب الشيء وحسنه،
[65] الزبرج: الثوب الموشى بجوهر أو ذهبن، المنقد: المنقطع،
[66] ضنت: بخلت، جلت: أظهرت، انثنت: عادت،
[67] الحر يوصى أي يعمل بما يوصى به، والمعنى: أن الحر تكفيه الوصية مما تحب أن يفعله على عكس العبد ، فلا بد أن يزجر زجرا بالعصا، وفي هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبي:
لا تشتري العبد إلا والعصا معه ** إن العبيد لأنجاس مناكيد
[68] الديوان: جـ / 2 ص: 159.

أرقُبُ منه مثل يـومِ الــوِرْدِ[69]
حَمَلتُـهُ في رُقْعَـةٍ من جِلْدِي
صبْـراً وتنزِيهـاً لما يُـــــؤَدِّي[70]

وقوله[71]:

ذهب الدهـــرُ بسِمْطٍ وَبَـرَا
وجَـــرَى دمـــعي سحًّا في الرَّدا[72]
فــؤادي كجنـاحيْ طائـرٍ
مـن غـدٍ لا بـدَّ من مرّ القضا

ومـن القـــوم إذا ناسمْتُهُمْ
ملِك في الأخـذ عبدٌ في العطا[73]
وأخ ذي نيقـةٍ يسألُنـــي
عـن خليطيَّ، وليسـا بسـوا[74]

---

69 الورد: من أسماء الحمى.

70 حملتُـهُ في رُقْعَــةٍ من جِلْدِي، صفة للدمل التي أصبح يحملها في جلده، والتي هي عنده حكال الصاحب السيئ المعاشرة في تحمل أذاه ولزوم مخالطته بحال الدمل في الجسد

71 الديوان: جـ / 1 ص: 157

72 السمط، الخيط المنظوم في الدر، وهو يريد أن الدهر نشر سلك سحابته، وقوله: "وبرا" جمع "برة" وهي الحلقة التي تلبسها المرأة في اليد أو في الساق مثل الخلخال.

73 ناسمتُهُمْ، أراد إذا علمت حالهم،، لأنه يقال: تنسم علم كذا، أي تلطف في استطلاعه.

74 نيقــةٍ، اسم التنيق، وهو تجديد اللباس، وأراد بخليطه، النوعين من الأصحاب، الصادقون، والأصحاب المخدعون.

وقوله:[75]

وعِيٌّ الفِعـال كعِيّ المقـالِ
وفي الصَّمـــت عِيٌّ كعِيّ الكَلِـمْ

وقال آخر[76]:

ولسنا كأقـوام أَجَدُّوا ريَاسـة
يُرَى مالُها ولا يُحَـــــــسُّ فعالُها
يُرِيغُـون في الخِصْبِ الأُمورَ ونفْعِهم
قليـلٌ إذا الأمـــــوالُ طـال هُزالُها[77]

وقلنا بلا عِيّ وسُسْنـا بطاقـةٍ
إذا النارُ نارُ الحربِ طـال اشتعالُها

فهو بذلك يرى أن العجز والعِيَّ من الحماقة والجهل، سواء أكان في الجوارح أم في الأعضاء،

ويقول أحَيْحَة بن الُجلاح فيما معناه:

والصمت أجمل بالفتى ما لم يكـن عِيٌّ يَشينُـهْ

---

75 الديوان: جـ / 2 ص: 519، طبعة دار الجيل، بيروت، والعي: من الإعياء ، التعب والعجز، والمعنى أن العاجز عن القيام بالفعل كالعاجز عن القيام بالكلام أيضا،

76 وهو زبَّان بن يسَّار، شاعر جاهلي ، الاشتقاق ص: 172،

77 يريغون: يطلبون ويدبرون، الأموال: الإبل،

والقول ذو خطل إذا ما لم يكـن لبٌّ يُعينُـهْ[78]

وقال ذهب مذهبها مكيٌّ بنُ سوادة[79]:

تسلَّمَ بالسكـوت من العيــوب
فكـان السَّكْتُ أجلبَ للعيــوبِ
ويرتجـلُ الكلامَ وليس فيـه
سوى الهذيـانِ من حشـدِ الخطيبِ

وهم بذلك يرون أن العِيَ أقسام، فهو لا يكون في الكلام فحسب، بل يكون كذلك في الصمت حين يكون واجبا، ويكون الكلام ثرثرة، ويكون العجز والعي من الحماقة والجهل كذلك، كما يكون في الأعضاء وفي الألسن،

وقول بشار في رثاء ندمائه الذين مات منهم الأربعة وبقي منهم واحد يقال له "البراء" فركب في زورق ليعبر دجلة العوراء فغرق، فقال بشار لا خير في الدنيا بعدهم[80]:

يا بْنَ موسى ما ذا يقـول الإمام
في فتـاةٍ في القلـــب منها أُوَامُ[81]

---

78 الخطل: الخطأ،
79 البيان والتبيين جـ / 1، ص: 5 .
80 الديوان: ج / 4 ، ص: 196

بتُّ من حبها أوقّـَر بالكـأ

س ويهفـوُ على فـؤاديْ الهيـام[82]

ويحها كاعبـاً تـَدِلُّ بجَهْمٍ

كَعْثَبِيٍّ كأنـــــــــه حمَّـــام[83]

لم يكـــن بينها وبيني إلا

كتُبُ العاشقيـــــن والأحـلام

يا بن موسى اسقني ودع عنك سلْمى

إن سلمـــــى حِمىً وفيَّ احتشـام

وقد عكس في شعره الطوابع العقلية الجديدة فمن ذلك قوله[84]:

شفاءُ العَمَى طـولُ السؤال وإنما

تمامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجَهْلِ[85]

فكُن سائـلا عما عنَـاكَ فإنما

دُعِيتَ أخَا عَقْـلٍ لتبْعثَ بالعقلِ[86]

---

[81] الديوان: جـ / 2 ، ص: 505، والإمام: يعني الإمام المهدي، وابن موسى، لعله كان مصاحبا له أو ساقيا يسقيه، "والأوام" العطش.

[82] أوقّـَر: أي أهدأ من الاضطراب الحاصل من حبها،

[83] الكَعْثَبِيّ: الناتئ ، البارز، والجهم: الغليظ الضخم، والكاعب: الفتاة التي برز نهدها وصارت في سن البلوغ، .

[84] الديوان: ج / 2، ص: 477، طبعة دار الجيل بيروت لبنان،

[85] العمى في الصدر والعجز تحمل دلالات الجهل أكثر مما تحمل دلالات فقدان البصر،

[86] عيون الأخبار 2 / 123.

ففي هذه القطعة يصف بشار لداء العمى دواء يشفيه هو دوام السؤال ولا يحدد نوع العمى بل يطلقه ليشمل عمى البصر وعمى البصيرة ويخلص من ذلك إلى حيث الإنسان على طول السؤال، لأنه عاقل ومادام كذلك فعليه أن يبحث بالعقل، وقد جعلت هذه المحاجة أبيات بشار أبعد عن الشعر وما فيه من قوة الفن والتصوير وأقرب إلى النثر العلمي وما فيه من صحة التقرير والتعليل،

ويقال ما يشبه هذا عن القطعة الثانية فهي عرض موجز لقضية الخبر والاختيار وإن بدت أقرب إلى النبرات الشاعرية الخفيفة لامتزاجها بالمشاعر الذاتية وتعبيرها عن الحيرة واستعمالها صيغة المتكلم،

وفي شعر بشار نماذج كثيرة أخرى من هذا النوع، وقد استطاع بشار وغيره من كبار الشعراء الاستفادة من هذه الطاقات العقلية الجديدة في صياغاته الفنية الجيدة،

ولعل في ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة بشارا هذه الطوابع العقلية التي جعلته يمتاز في شعره بشخصية قوية، ولم يكن ما منحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظا وقدرا، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار، إذ كان يغدو ويروح في نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة، وفي أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم، من ذلك فكرة التوليد، وهي الفعل الذي ينشأ عن فعل آخر دون قصد، فقد صدر عنها في قوله متغزلا بجنان[87]

[87] الديوان: ص:163، دار الكتب العلمية بيروت لبنان1414 هـ 1994 م

وذاتِ خَـدٍّ مُــوَرَّدْ قوهيــةَ المتجــرَّدْ[88]
تأمَّـلَ النـــاسُ فيها محاسناً ليس تنفـدْ
فبعضُـهُ في انتهـــاءٍ وبعضـهُ يتولّـَـــدْ
الحســنُ في كلِّ جُـزْءٍ منها مُعـــــاد مُرَدَّدْ
وكلما عُـــــدْتَ فيـه يكون بالعَـــــوْدِ أحمدْ
فاشرَبْ على وجه بـدرٍ ريَّانَ غيــر مُعَرْبِـــدْ[89]

وكقوله[90]:

يا عاقِـدَ القلـبِ منّي هَـلاّ تذكـــــرْتَ حَـلاّ
تركْـتَ جِسْمِي عليـلا مـن القليـــــل أقـلّ
يكـادُ لا يَتَجَـــــزّا أقـلُّ في اللفظ مِنْ لا
وقد مُلِئـــتَ لعيني ، شُحّـاً عليّ، وبُخْـــلاَ
فما تـــــراني لوصلٍ وإنْ هويتـــكَ أَهـــلاَ

وكانت هذه الظاهرة أشد وأقوى من شعر عدد من معاصريه من أهل الكلام وأصحاب المذاهب والفرق الدينية، كبشر بن المعتمر، شاعر المعتزلة، الذي أكثر

---

[88] الأبيات يقولها في نعت جنات جاريات لآل عبد الوهاب الثقفي، وهي في ديوانه ص: 371، قوهية: أراد بيضاء، والقوهي ضرب من الثياب بيض، وفي الديوان: (فتّانةُ المتجرد)

[89] المعربد: السيء الخلق،

[90] الديوان: ص: 436،

من الحديث عن قيمة العقل وبأنه مقدس وفضله كبير في الفصل بين الخير والشر، وله قصيدة يشير فيها إلى نظرية القبح والحسن العقليين، وتعني عنده أن الحسن والقبح ذاتيان، يدركهما ويميزهما العقل قوله:

لله در العقـل من رائـــدٍ
وصاحبٍ في العســر واليسـرِ
وحاكـــم يقضي على غائبٍ
قضيـة الشـاهـــــــد للآمـرِ
وإن شيئا بعــض أفعـــله
أن يفصل الخيـــر من الشَّـرِّ
بذي قـوى قد خصـه ربه
بخالص التقديـــس والطُّهْـــرِ

وفيها يدعو كذلك إلى عدم تعطيل العقل فيقول:

وانظــر إلى الدنيا بعين امرئ
يكــره أن يجـري ولا يـدري

وصفوان الأنصاري، وقد أجاد كبشار، وأحسن الدفاع عن مذهب الاعتزال، والنظام الذي كان أكثر نجاحا من زميله في نظم الشعر فقد وفق بين اتجاهه العقلي

والكلامي وبين متطلبات الصياغة الفنية وطرق موضوعات شعرية أخرى غير الجدل كالغزل والوصف،

ومن شعر بشر الذي تضمن هذه الخصائص العقلية وينجو فيه منحنى الاستدلال والتعليل كقوله من قصيدة طويلة تبلغ سبعين بيتا منها[1]:

لو فكـر العاقـل في نفسـه
مـدة هـذا الخلـق في العمـرِ
لم يـر إلا عجباً شامـلاً
أو حجـة تنقـش في الصخـر
فكم تـرى في الخلق من آيةٍ
خفيـة الجسمـان في قصـر

أبـرزها الفكـر على فكـرةٍ
يحـار فيها وضح الفجـر
سبحـان رب الخلـق والأمـر
ومنشـر الميت من القبـر
فاصبـر على التفكير فيما ترى
ما أقرب الأجـر من الوزرِ

(1) القصيدة ضمن قصيدتين ذكرهما الجاحظ في الحيوان 284/6.

ولبشر كما يلاحظ عبد الحكيم بلبع سمة خاصة، جعلت منه يكون أكثر تمثيلا لخصائص مذهب المعتزلة ومذهبهم وثقافتهم، فهو يضمن شعره كثيرا من الإشارات المذهبية ويستلهم الحكمة والموعظة [2]،

هذه أهم السمات أو الخصائص في شعر بشر الذي كان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبتعدوا بشعرهم عن دوائر الشعر المألوف من المديح والغزل والهجاء والرثاء والوصف، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعاني ومن غرائب الصور والأخيلة على نحو ما يلقانا عند العتابي والنظام [3]،

ومن شعر النظام الذي يمتزج فيه طابع المتكلمين العقلي بالطابع الفني للشعر قوله في الغزل [4]

يا تاركي جسدا بغير فؤاد
أسرفت في الهجران والأبعاد
إن كان يمنعك الزيارة أعين
فادخل على بعلة العواد
كما أراك وتلك أعظم نعمة
ملكت يد لك بها منبع قيادي

---

[2] أنظر عبد الحكيم بلبع: أدب المعتزلة 276 وما بعدها.
[3] ضيف. 152.
[4] أنظر أمالي المرتضى 133/1 وسرح العيون / 143.

أن المعبـــود على القلـوب
كانت بليتهـــا على الأجسـادي

وقوله أيضا:
توهمَـه طَـــرْفي فآلم خـده
فصار مكان الوهم من نظري أثـرُ
وصافَحَـــهُ قلبي فآلم كفَّـه
فمن صفـح قلبي في أناملـه عقـر
ومرّ بقلبِي خاطـــرًا فجرحتـه
ولم أر جِسمًا قـط يجرحُـه الفكـرُ
يمر فمن ليـــن وحســن تعطف
يقـال به سكـر وليس بـه سكـــر

وقوله: [1]
ذكرتـك والـراح في راحـتي
فشبت المـدام بدمـع غزيـــر
فإن ينفـذ الدمـع فالأسـى

[1] سرح العيون /143 الحواشي 201, 3 ذكرها: بلبع، أنظر أدب المعتزلة 336-339.

بكتـك الحشى بدمـوع الضحــر

ومن شعر النظام الذي كثر الاستشهاد به على تأثر معاني الشعر بمذاهب المتكلمين قوله في وصف الخمر:

مازلت له اخـذ روح الزق في لطف
واستبيــح دمًا من غير مجـروح
حتى اثنيتُ ولى روحـان في جسَدِي
والزِّقّ مطّــرح جسـم بلا روح
(2)

وقد طرق بشار هذا المعنى له وقاربه في قوله:
شربنا من فؤاد الدن, حتى كأن الدن ليس له فؤاد [91]

وكان أبو نواس ينحو هذا المنحنى, فيظهر أثر المتكلمين ومنطقهم وتعليلهم وقياسهم في شعره، ولا غرابة في ذلك, فقد نشأ في البصرة، وتردد على مجالس المتكلمين فوعى أساليبهم المنطقية ولغتهم الجدلية، وارتبط بروابط الود مع بعضهم ولا سيما النظام، فاتسعت ثقافته، وتقوت مداركه العقلية وساعده هذا على استنباط

(2)
91 الاختبار من شعر بشار للخالديين،

المعاني الدقيقة وصياغتها بأسلوب شديد الأسر، مكين المنطق، وقد ذكر له الجاحظ أبياتا طالما استشهد بها الباحثون المعاصرون للدلالة على تأثر الشعر بمناهج المتكلمين وابتكارهم ولغتهم منها قوله يتغزل بجنان:[92]

وذاتِ خَـدٍّ مُـــــوَرَّدْ قوهيـــةَ المتجرَّدْ
تأمَّـلَ النـــــاسُ فيهـا محاسناً ليس تنفـدْ
فبعضُـهُ في انتهـــــاءٍ وبعضـــــهُ يتولّـَدْ
الحســنُ في كلِّ جُــزْءٍ منها مُعـــــــادٌ مُرَدَّدْ
وكلما عُـــــدْتَ فيـه يكون بالعَـــــوْدِ أحمدْ
فاشرَبْ على وجه بـدرٍ ريَّانَ غير مُعَرْبِـــــــدْ

ويرى شوقي ضيف أن أبا نواس يشير إلى فكرة التولد، وهي الفعل الذي ينشأ عن فعل آخر دون قصد[93]

وبذلك نرى أن المعنى بحد ذاته يدل على قوة الفكر والتصور والقدرة على إقحام القضايا الجدلية في معاني الشعر، فالجمال هنا في حركة دائمة كحركة الحياة يصل بعضه إلى أقصى نهاية الحسن بينما يتولد بعضه ليضيف محاسن أخرى، كقوله:
يا مَنْ تمـرّهَ عمْـــــداً فكـــــان للعيـن أملا[94]

---

[92] سبق ذكر الأبيات في ص:54، مع شرحها،
[93] البيان والتبيين الجزء الأول ص:141،
[94] تمرّه: أخلى عينه من الكحل.

وفي الشعـــوثة أيضا فكـــان أحلى وأحلى[95]
يا عاقـــدَ القلبِ منّي هـلا تذكـــرتَ حلاَّ
تركـتَ جسميِي عليلا من القليـــــل أقَلاَّ
يكـاد لا يتجـــــــزَّا أقـلَّ في اللفظ منْ لا

ويروى أن النظام سمع منه هذه الأبيات، فقال له: "أنت أشعر الناس في هذا المعنى, والجزء الذي لا يتجزأ ـ منذ دهرنا الأطول ـ فخوض فيه ما خرج لنا من القول ما جمعت أنت في بيت واحد،

وقد رد أبو نواس رأى المعتزلة في أن الله يرفض العفو عن مرتكب الكبائر وردد رأى المرجئة المخالف الذي يرى أن الله يعفو إذا شاء، وقد ورد التباين في قصيدته الشهيرة[96]:

دعْ عنكَ لوْمِى فإن اللـوْمَ إغْـرَاءُ
وَداوني بالتي كانَتْ هي الـــــدّاءُ[97]
صفراءُ لا تَنْزِلُ الأحـزانُ ساحَتَهَا
لو مَسَّهَا حَجَـــرٌ مسَّتْهُ سرَّاءُ[98]

---

95 الشعوثة: اغبرار الشعر وتلبده.

96 الديوان، ص: 11، وما بعدها. وقوله "لا تحضر العفو" لا تمنعه، والحرج: المتشدد في الدين، والإزراء: الاحتقار، وهو بذلك يريد أن يقول: إنك تشدد في العفو عن مرتكب شرب الخمر مع أن الله غفور رحيم.

97 أغراه بالشيء: جعله مولعا به، يقول كفَّ عن لومي يا هذا، فلومك لي لا يمنعني عن تعاطي الخمرة، بل يضاعف إغرائي بها، وإذا كنت تطلب الشفاء والبراء لي فداوني بالتي كانت دائي،

وهما:

فقُلْ لِمَنْ يدَّعِي في العلـمِ فلسفـةً
حفِظْتَ شيئا وغابت عنك أشيـاءُ
لا تَحْظُرِ العفو إن كنت امرَأً حرجـاً
فإنّ حَظْـــــــرَكَهُ في الديـن إزْرَاءُ[99]

ويقال إنه كان يقصد النظام بقوله هذا، وقد كرر أبو نواس هذه الحجة في مواضع كثيرة من شعره وصاغها بنبرات لا تعدو الرجاء في عفو الله حينا والاعتراف بالذنب وبالعجز عن تركه والاستعداد لتحمل عقابه حينا آخر [(6)]، وعاد إليها بأسلوب متضرع رقيق في زهدياته كقوله[100]:

يا ربّ إن عَظُمتْ ذُنُوبِيَ كَثْـرَةً
فلقد علِمْتُ بأن عفـوكَ أعظـــمُ
إن كان لا يرجـوكَ إلاَّ محسـنٌ

---

[98] السراء: السرور، أراد أن الحجر لو مسته الخمرة لبعثت فيه النشوة والانشراحن

[99] ديوان أبي نواس (ط. أصاف) 35، وهو بذلك يريد أن يقول: لا تحضر العفو، أي لا تمنعه ، لا تجعله محظورا، والحرج المتشدد في الدين، الإزراء: الاحتقار، وهو في هذين البيتين يسير على منطق النظام لكنه بمنطق يعاكسه ويدحضه، فيقول: إنك تشدد في العفو عن مرتكب شرب الخمر مع أن الله غفور رحيم،

[(6)]عبد الرحمن صدقي: ألحان 193-2002.

[100] الديوان، ص: 501،

فبِمَنْ يلـوذُ ويستجِيـرُ المجـرمُ
أدعوك ربّ، كما أمرتَ، تضرّعـاً
فإذا رددْتَ يـدي، فَمن ذا يرْحَـمُ
ما لي إليك وسيلـةٌ إلا الرَّجَـا،
وجميلُ عفـوِكَ ثمّ أنّي مُسْلِـمُ

وقوله في زهدياته أيضا:

يا كبيـر الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في أصغر عفو الله يصغر

وهذه أبيات أخرى تدل على تأثره بمناهج وأفكار المعتزلة وأصحاب الجدل والمنطق وغيرهم كقوله يصف الخمرة:[101]،

توهمتُهَـا في كأسهـا فكأنمـا
توهمـــــتُ شيئا ليس يُدْركُ بالعقـل
وصفراءَ أبقى الدهرُ مكنونَ رُوحِها
وقد مات من مخْبُورِها جوهـرُ الكُـلِّ
فما يرتقي التكييف منها إلى مـدىً
تُحَـــــــــدُّ به إلا ومن قبلـه قبْلُ

101 الوسـاطة، ص: 59.

وقوله فيها أيضا:

وقـد خفيت من لطفها فكأنها

بقايا يقيـــنٍ كـاد يُذْهبه الشَّكُّ

فالأبيات كلها من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التي تبلغ حد الوهم، فقد جعل الخمر لا تُدْركُ بالعقل كأنها معنى خفي لا ينكشف ودعاها "جوهر الكل" وقال إنه لا يحيط بها كيْفٌ أو تكييف تُحَدُّ به وتُعْرف،

وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تبين، ومن هذا القبيل قوله[102]:

تُخُيّـــرَتْ والنجـــومُ وقْفٌ

لم يتمكّـــنْ بها المَـــــدَارُ[103]

فلم تـزَلْ تأْكُـلُ الليـــالي

جُثْمانها ما بها انْتِصَـــــارُ

حتى إذا مـــات كـل ذامٍ،

وخُلّصَ السرّ والنّجَـــــارُ[104]

---

[102] الديوان، ص: 205،

[103] أراد أنها اختيرت قبل أن تبدأ نجوم السماء التحرك في أفلاكها، المدار: عن الليث: المدار مفعل، يكون موضعا ويكون مصدرا كالدوران، ويجعل اسما نحو مدار الفلك في مداره،

[104] الذام: العجيب، السر: جوهر كل شيء ولبابه، النجار: الأصل والحسب،

عـــادت إلى جوهــرٍ لطيفٍ
عِيَـــــانُ موجــودِهِ ضِمَارُ[105]

وقوله[106]:

وبكــر سلافـةٍ في قَعْرِ دَنٍّ
لها دِرعـانِ من قـارٍ وطيـنِ[107]
تحّكـمَ عِلْجُها، إذ قلـتُ سُمني
على غير البخيـل، ولا الضنيـنِ[108]
شضكّكت بُزالَهـا ، والليـل داجٍ
فَـــدَرّتْ دِرّةَ الوَدَجِ الطّعينِ[109]
كأن الشمـــس مقبلة علينا
تَمَشّى في قلائـــــــدِ ياسَمِيـنِ
أقـــول لناقتي، إذ بلغتني:
لقد أصبحـت عنـديَ باليميـنِ[110]
فلم أجعلـــك للقربان نحراً

---

105 الضمار: الشيء الذي يضمر، وهو خلاف ما يعاين،
106 الديوان، ص: 508.
107 القار: مادة سوداء تطلى بها السفن، وقيل هو الزفتن
108 العلج هنا:تاجر الخمر من غير العرب، سمني: من المساومة في البيع والشراء،
109 الودج: عرق في العنق ينتفخ عند الغضبِ،
110 اليمين: الخير والبركة، لأن العرب كانت تتفاءل باليمين وتتشاءم بالشمال،

ولا قلت اشـــرَقي بـدَمِ الوتينِ[111]

وكان ابن قتيبة معجبا بالبيت: تخيرت والنجوم وقف... الخ في القطعة السابقة ويرى أن أبا نواس يشير فيه إلى بعض نظريات علماء الفلك والحساب من الهنود، ويضيف ابن قتيبة أن الشاعر قد استفاد أيضا من نظر علماء الهند في علم الطبائع حين قال هاجيا بعض المغنين:

سخنت من شـدة البرودة حتى صرت عنـدي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلـج بـارد حار

ومن الشعراء الذين تكثر في شعرهم هذه الخصائص العقلية أو الفكرية الجديدة أبو تمام الطائي وقد أشرنا قبل قليل إلى طائفة من المعاني التي سبق إليها، والشواهد التي ذكرناها تعكس في الوقت نفسه ما امتاز به هذا الشاعر خاصة والشعر السياسي عامة من اللجوء إلى الاستدلال وحسن التعليل والاستنتاج وغير ذلك من السمات الدالة على تأثره بالمذاهب الكلامية والفلسفية وعلى نجاحه الفائق في مزج الحس الفني بالحس العقلي وتدعيم المعاني والأفكار التجريدية بالأدلة العقلية وكانت أوضح وسائل هذا التدعيم مقاربة بالصور المادية أو الحسية لتسهيل سبل الاستدلال وحسن التعليل والبرهنة واستخلاص النتائج،

وكان أبو تمام من أبرز الشعراء الذين توسلوا بهذه الوسائل باتفاق جمهور النقاد من قدامى ومحدثين، وقد نقل ذلك وفق منهج مدروس وخطة مرسومة طورت لغة

[111] اشرقي : غصيّ ، الوتين: عرق في القلب، إذا انقطع مات صاحبه،

الشعر العباسي تطويرا حاسما، وجهزت لها مذهبا فنيا قدر له أن يلعب دورا رئيسا في حياة الشعر العباسي بكل ما قد نتج من هذا الدور من محاسن ومساوئ،

وقد أوضح الدكتور شوقي ضيف هذه الناحية في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي)، وأثبت بطريقة لم يسبقه إليها باحث معاصر أن أهم شاعر يمثل مذهب التصنيع في القرن الثالث هو أبو تمام، وقد انتهى المذهب عنده إلى الغاية التي كان يهدف إليها شعراء العصر العباسي من الزخرف والتنميق[112] وشرح شوقي ضيف بإسهاب كيف استخدم أبو تمام وسائل التصنيع القديمة، وكيف استحدث الوسائل الجديدة، وكيف استعمل المزج بينهما بطرق متنوعة كقوله[113]:

لا تنكروا ضرْبي له مَنْ دُونه
مثلا شَرُوداً في النَّدَى والبَاسِ
فاللهُ قد ضرب الأقلَّ لنوره
مثلا من الْمِشكاةِ والنِّبْرَاسِ
إن تحوِ خصْلَ المجْدِ في أنْفِ الصِّبا
يا بْن الخليفةِ يا بن العباسِ

---

112 شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي 157.

113 الديوان، 3 / 250. وعمرو: هو عمرو بن معد يكرب الفارس المشهور، وأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة في العصر الأموي، وكان يشتهر بحمله، وإياس، هو إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يشتهر بذكائه

وقد يزعم الرواة أنه ارتجلها عندما اعترض معترض على قوله في مدح أحمد بن المعتصم[114]:

إقدامَ عمـروٍ في سماحـةِ حاتـمٍ
في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذكـاءِ إيـاسِ

فلما رد بالبيتين عجب الناس من ذكائه وسرعة خاطره وقوة حجته، والبيتان من أقوى الأجوبة المسكتة التي يلجأ إليها الفقهاء وأهل التطرف في مناظراتهم لإفحام الخصوم، ولكن أجوبة الفقهاء قلما ترد بهذا المستوى الفني العالي، فقد وفق الشاعر بين قوة التعبير والتصوير الشعري وقوة الحجة، وأي حجة أقوى من هذه الحجة المستندة على كلام الله؟ وقد اختار له النقاد شواهد أخرى من هذا القبيل كقوله:

لا تنكِرِي عطلَ الكريـم من الغنى
فالسّيْلُ حــربٌ للمكـانِ العالِـي[115]

وقوله:

ليس الحجاب بمقص عنـك لي أملا
أن السمـاء ترجى حيـن تحتجب

---

114 الديوان، 2 / 249 ،.
115 الديوان الجزء الثالث ص: 77

وقوله:

والصبحُ تَخْلُفُ نـورَ الشمسِ غُرّتُهُ

وقرنُها من وراء الأفْـقِ محتجِبُ[116]

لقد كان أبو تمام يتعمق الاعتزال وعلم الكلام، بل يظهر أنه من تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق, وقد ألمح إلى ذلك الآمدى في قائمة كتابه, "الموازنة بين الطائيين" فقال: إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة، وتتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله في هجاء بعض خصومه:

هبْ من لـه شيءٌ يريد حجابَهُ

ما بـالُ لا شيءٍ عليه حجابُ

وكلمته لا شيء في اصطلاح المتفلسفة تعنى العدم، ومن ذلك قوله:

لن ينالَ العـلاَ خصوصاً من الفتـ

ـيـان من لم يكـن نداه عموما

والعموم والخصوص من كلام المناطقة، ومن ذلك قوله في أحد ممدوحيه:

صاغَهُمْ ذو الجلال من جوْهَر المجـ

116 الديوان الجزء الأول ص: 252

د وضـاع الأنـام من عَرَضِهْ[117]

والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض،[118] وفي شعره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية, وعلى رأسها المعتزلة, بوجوب التكاليف الشرعية وبعد أن أورد شوقي ضيف شاهدين آخرين قال: ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل في قراءة الفلسفة. فإذا شعره يطبع بطوابع الفكر الدقيق" [(1)]...

وفي العصر العباسي الثاني (247-334 هـ) وهو العصر الذي نميل إلى تسميته بعصر المحدثين، حيث ازداد فيه تأثير الثقافات العقلية في الشعر والنثر ولكنه تفرع وتشعب حتى كون عدة اتجاهات ومذاهب، فابن المعتز الذي كان واسع الثقافة كأبي تمام تصدر بعده شعراء المدرة البديعية، ولكنه كان أقل قدرة في تصنيع المعاني بوسائل سلفه الكبير، فكرس فنه وموهبته إلى التفنن بالتشبيه واقتصر في فنون البديع والمجاز الأخرى، ومن هنا صفف الطابع العقلي الكثيف في شعره رغم ثقافته الواسعة،

صحيح أن بعض التشبيهات تعكس تأثير المنطق والقياس وتعمد على الاستدلال، غير أن المعاني والأفكار تبقى عائمة على السطح لتبين ما في المبنى من زخرف وتزويق، ويبدو هذا بجلاء في تشبيه المرئيات والحسيات ببعضها وفي تشبيه المعنويات بالحسيات وهو عين ما ذهب إليه ابن المعتز[119]، فالذهب والفضة

---

117 الديوان ، بشرح الخطيب التبريزي، طبع دار المعارف 3 /215 .
118 العصر العباسي الأول، 157 - 158.
119 العمدة لابن رشيق القيرواني 1 / 194، ومعاهد التنصيص 1 / 146 .

والياقوت واللؤلؤ والزمرد وأنواع الورود والحرير وسائر الأشياء الثمينة الجميلة كانت مواد تشابهه واستعاراته، وكان خبيرا بها لوفرتها في بيئته الأرستقراطية الخاصة،

ولكن هذا لا يعنى أن تأثير المتكلمين والفلاسفة والفقهاء كان خفيفا أو خفيا في معاني ابن المعتز لأن بصماتهم واضحة في بعض أغراض شعره كالزهد والحكمة والشعر التاريخي وحتى في خمرياته فمن ذلك قوله يتغزل:

هـواي هـوى باطـن ظاهــر
قديـم حديـث وطيف جليـل

وقوله يهجو أبا الصقر إسماعيل بن بليل ووزيره الموفق،

وذكـر السعـــود والنحوسا
والجوهـر المعقـول والمحسوسا
والعـرض الطاهـــر التجسيم
والقـــول في طلائـع النجـوم
وقـــدم النظـــام أو ثماته
وذكـــر التعديـــل والإقامـة

ويظهر إطلاعه على مبادئ المعتزلة في قوله:

رب أمـــــــر تتقيـه جر أمـرا ترتجيـه
فاترك الدهـــر وسلمه إلى عـــــدل يليـه

ونجد في ابن الرومي طرازا آخر من الشعراء الكبار الذين اتسعت عقليتهم وموهبتهم الفنية بتأثير الثقافات العقلية التي ازدهرت في القرن الثالث الهجري، ولعل ما عرف عنه من قدره فائقة في اختراع المعاني وتوليدها وشدة العناية بها وهو أمر أكده قدماء النقاد،

كان من نتائج هذا التأثير، فالإطالة التي عرف بها ابن الرومي وتفصيل المعاني واستيفائها وربطها ببعضها في القصيدة الواحدة يحتاج إلى المنطق والحجاج والاستدلال والتعليل وربط المقدمات بالنتائج ونجاح إلى ثقافة فنية والتي يمكن من أسباب الصناعة الشعرية،

أما ما عرف عن ابن الرومي من تطير، وكون التطير والفأل ينافيان العقلية الواسعة والمنطق النزيه، ولا ننسى أن ابن الرومي قد غلب عليه التشاؤم والشكوى من الزمان والتأسي, والتطير جزء أو عنصر من عناصر التشاؤم. ولا ننسى أيضا أن ما روى من نوادر وحكايات عن تطير ابن الرومي لا تخلو من المبالغة والفكاهة ومن الرغبة في القلب والتهكم، لهذا يصعب قبولها كأخبار موثوقة تصف الحقيقة دون زيادة، يقول الزبيدي إنه: "كان لا يدع التطير والتفاؤل في جميع حركاته وتصرفه"[120]، وكان يحتج بذلك لذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب

120 طبقات النحويين للزبيدي "الخانجي" ص" 126.

الفأل ويكره الطِّيرة وأن عليا رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في برج العقرب، ويقول إن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها،[121]

ولكنه ومهما يكن ففي شعر ابن الرومي زيادة على الحقائق العقلية العامة التي أشرنا إليها ما يدل دلالة واضحة على تأثير الثقافات والعلوم العقلية كقوله في وصف بكاء المولود قوله:

لما تُؤذنُ الدنيا من صروفها
يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلاَّ فما يُبكيه منها وإنها
لأفسح مما كان فيه وأرغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه
بما سوف يلقى من أذاها مهدَّدُ
وللنفس أحوالٌ تظلُّ كأنها
تشاهدُ فيها كل غيب سيشهدُ

ويمكن انتقاء أمثلة أخرى كقوله في وحيد المغنية:

وغرير يحسنها قال صفا
قلت أمران هين وشديد

[121] الحصري، زهر الآداب 2 / 171.

يسهل القول أنها أحسن الأشياء طرا ويصعب التحديد فوصف جمال وحيد فيه أمران: هين وشديد والقول بأنها أحسن الأشياء سهل ولكن تحديده صعب، ألا تجد في ذلك نمطا من التفكير أقرب إلى أصحاب النظر ولباقتهم والمتكلمين فيه منقسمون وفيه تحرز العلماء ولباقتهم ومنطقهم؟

وفي قصيدته الهمزية الطويلة التي قالها في عتاب أبي القاسم تدل على عمق التفكير وقوة المنطق وسعة الثقافة والإطلاع، يكشف فيها عن هنات أبي القاسم بطريقة دقيقة ثم تشخص هذه الهفوات وتنفث فيها الروح ليقدمها طورا طويلا تتولى فيه الأوصاف وتتداعى الأفكار بتسلسل منطقي يمتزج فيه الشعر بالفكر قوله:

أين مصداق شاهد كان يحكى
أنك المخلص الصحيح الإخاء
كشفت منك حاجتي هفواتٍ
غُطِّيَت بُرْهَةً بحسن اللقاءِ
تركتْني ولم أكنْ سيِّئَ الظَّ
نِّ أسئُ الظنون بالأصدقاءِ
ليبتني ما هتكْتُ عنكنَّ ستراً
فثويتنَّ تحت ذاك الغطاء
قلن لولا انكشافُنا ما تجلت

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى ما في حكم ابن الرومي الكثيرة من دلائل على تطور عقليات الشعراء، ومن سمات يتحلى فيها امتزاج الثقافات المختلفة وعلى امتيازه الشعراء الكبار بمهمة هذه التأثيرات وتمثيلها ومزجها بالفن الشعري، وعلى تنوع هذا المزج وفق المنحى أو الأسلوب الذي امتاز به كل منهم، فأبو نواس يستعين بها في وصف الخمر، وأبو العتاهية يضمن عناصر الثقافة العامة والدينية في الزهد والوعظ، فهو يقدم حجج الفقهاء في نديمه السياسي. وأبو تمام يضمنها في محسنات البديع المعنوية واللفظة, وابن المعتز يفيد منها في طائفة من تشبيهاته واستعاراته وفي وصف الخمر وفي شعره التاريخي والاجتماعي, وابن الرومي يستعين بها في تفريع المعاني وتوليدها والمضي في استقصائها واستيفائها ويطيل في ذلك إطالة دفعت بعض الباحثين إلى الزعم بأن عقليته عقلية يونانية،

ولم يقتصر تأثير العلوم العقلية والدينية وازدهار الثقافة الأدبية وتوسعها على إثراء لغة الشعر وأغناء معانيه وأفكاره بصورة عامة, فقد كان من ثمراتها أيضا ظهور غرض أوفق شعري جديد هو الشعر الصوفي،

وكان ظهور شعر الزهد والوعظ في العصر العباسي الأول قد مهد الطريق لهذا الغرض الجديد, فلما توسعت العلوم العقلية وتبلورت المذاهب والفرق العقائديه وزاد عددها زيادة كبيرة، ظهرت معها الحركة الصوفية وكثر روادها ومريدوها وأتباعها، حتى إذا توسط العصر العباسي الثالث وأقبل القرن الرابع كان للتصوف

شاعران كبيران هما أبو بكر الشبلي والحسين من مضمونه الحلاج، ولم يكن طور هذين الشاعرين طفرة أو قفزه مفاجئة فقد سبقهما إلى الطور شعراء آخرون أقل شهرة،

وأصبحت من يومه معاني الشعر الصوفي تمثل طرازا جديدا صارت به حركة تطور معاني الشعر, ففيها تمتزج النظريات الصوفية الروحية من فلسفية وغير فلسفية بالعقائد الإسلامية وغير الإسلامية، وبالمشاعر والعواطف الذاتية الملتهبة، وهذه السمة العاطفية جعلتهما وثيقة لبعض أغراض الشعر، كالغزل والمديح الصادق والشعر الخمري من جهة، وبالغناء والموسيقى من جهة أخرى،

فمعاني الشعر الصوفي إذن أصبحت نموذجا راقٍ خاص من نماذج تطور معاني الشعر بتأثير العلوم العقائدية والعقلية المتنامية والثقافة الأدبية المزدهرة، نموذج تكتسب فيه المعاني أبعادا فلسفية وفكرية جديدة مع الاحتفاظ بقدر الإمكان بالأصالة الشعرية الفنية، فالنظريات الصوفية الرئيسة، كالحب الإله ووحدة الوجود لا تصبح معاني وأفكارا رتيبة كما وأن الحال في الشعر التعليمي, ولا نظريات فلسفية جافة كما هي الحال في الشعر الفلسفي، كشعر ابن سينا، إنما هي معاني رمزية عميقة صيغت بلغة شعرية صوفية لم تخرجها من دائرة الشعر الغنائي، وإليك بعض الشواهد، يقول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهــوى أنا
نحن روحان سكنا بـدنا
ماذا أبصرتـــــه أبصرتني

وإذا أبصرتـــــه أبصرتنا [1]

وقال في قصيدة صوفية طويلة:

لبيك لبيـك يا سـرى ونجــوائي
لبيك لبيـك يا قصـدي ومعنائي
أدعـوك بل أنت تدعـوني إليك فهل
ناديت أبـاك أم ناجيت أبـائي
يا من عيـن وجـودي يا مدى عمي
يا منطقي وعبـاراتي وأعبـائي
يا كل كلـن ويا سمعي ويا بصـري
يا حملتي وتباعيضي وأجــزائي
يا كل كلي وكـل الكـل ملتبس
وكل كلك ملبــوس بمعنـائي [1]

وقال:

يا نسيـم الريــح قولي للدشا
لم يـزد في الــورد الأعطشـا
لي حبيب حبـه وسـط الحشـا

إن يشـا شئت وإن شئـت يشـا[2]

ويقول أبو بكر الشبلي فيما معناه:

تسرمد وقتي فيـك فهو مسـرمد
وأفنيتني عني فعـدت محـددا
وكل بكل الكـل وصـل محقق
حقائــق حق في رؤم تخلـدا
تقترب أمــري فانفردت بقـربي
وأفنيتني عني فعـدت مجـرا [122]

وجاء المتنبي في أواخر العصر العباسي الثاني (303 هـ) ليلعب دورا، فنيا شبيها بالدور الذي قام به أبو تمام قبل قرن من الزمان، فاستخدم الموروث العربي اللغوي أيام استخدام، والثقافات السائدة في عصره، حتى أصبحت معانيه ضربا من المعارف العقلية والدينية من كلامية وفلسفيته وشيعية وقرمطية وصوفية... الخ، واهتم القدماء والمعاصرون بهذه الناحية اهتماما بالغا، وانتقوا شواهد كثيرة من شعره تدل على إلمامه بمختلف أنواع العلوم والثقافات مثل قوله:

وليس يَصِــحُّ في الإفهـام بشيء

[122] ديوان الشبلي ، 76 - 94.

إذا احتـاج النهـارُ إلى دليـل

قال ابن جنى، هذا كما يقول أهل الجدل: "من شك في المشاهدات فليس بكامل العقل" [1]وكقوله:[123]

مَنْ مُبْلِغُ الأعـرابِ أنِّي بعـدَهَا
شاهـدتُ رسْطَالِيـسَ والإسْكَنْدَرَا
وسمعْـتُ بطْلَيْمُـوسَ دارس كتبه
متملِّكـاً متبدِّيـاً مُتَحَضِّـــــــراً
ولقيـتُ كـل الفاضِلِيـن كأنَّمَا
ردَّ الإلـهُ نفوسَهُمْ والأعْصُــرَا
نُسِقُوا لنا نسـقَ الحسـاب مُقَدَّمَا
وأتَى فذلـك إذْ أَتيْتَ مؤخَّـــراً

وقد عد بعض النقاد البيتين الأخيرين في جملة المعاني المخترعة،[124]

وذكر ابن رشيق أن قوله: نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذا أتيت، تفسيرا مليحا قليل النظير في أشعار الناس[125]

---

123 الديوان ، المطبعة التجارية الكبرى، 2 / 277

124 محمود مصطفى ، الأدب العربي وتاريخه، 2 / 339.

ويطول بنا البحث إذا أوردنا ما ذكره النقاد والبلاغيون وكتاب التراجم وشراح الديوان بالفلسفة العلوم العقلية، فقد ملأ الحاتمي وحده عشرين صفحة من رسالته عن توارد حكم أرسطو في معاني المتنبي،[126]

وكانت حِكَمُ المتنبي الكثيرة المتنوعة مدار أحكامهم وشواهدهم في الأعم الأغلب، وقام الباحثون والكتاب المعاصرين بدراسات أوسع تناولت أغراض شعره، واهتموا بصورة خاصة بما سموه (فلسفة) المتنبي، يصفون بذلك مواقفه الفكرية والنفسية من الحياة وطبائع الناس وأخلاقهم[127]،

وبالغ بعضهم فجعلها أشبه بمذهب أو بنظام فلسفي واضح المعالم والأسس، وخص المتنبي بنعت (الفيلسوف)[128] وهذه الأقوال قد تقبل على سبيل الترسل والمجاز لا على سبيل التقدير والبحث التاريخي الأدبي الصحيح، لأن المتنبي لم يكن لم يصل إلى مستوى أبي العلاء المعري من هذه الناحية وإن تضمن شعره بعض بذور الفلسفة العلائية كما لاحظ حسين[129] وقد أوضح شوقي ضيف بأسلوب مختصر مفيد تأثير الفلسفة والتصوف والمذاهب الشيعية والقرمطية في صياغات

---

125 العمدةك 2 / 35، طبعة حجازي،

126 رسالة الحاتمي / وأنظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 288/2 الطبعة الجديدة. مراجعة شوقي ضيف

127 شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: 335

128 نبه شوقي ضيف إلى هذا الغلو: أنظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي 245.

129 طه حسين، مع المتنبي 2 / 386 ، 391

شعره على أساس أنها من وسائل (تصنع) المتنبي، وهل من أهم الوسائل التي كان يستخدمها المتنبي وغيره من الشعراء في هذه العصور، وسيلة الفلسفة اليونانية،

لقد كان يحاول أن يستوعب الأفكار والصيغ الفلسفية في قصائده ونماذجه حتى يتخلص قليلا من صيغ الفن الثانية وقوالبه القهقهة"[130] واستشهد شوقي ضيف ببعض ما ذكره الحاتمي من أمثلة في هذا الباب كقول المتنبي:

إلامَ طماعِيَـةُ العـاذِلِ
ولا أرى في الحـب للعاقـل
يــرادُ مـن القلب نِسْيَـانُكُمْ
وتأبى الطِّبَـاعُ على النَّاقِـلِ[131]

وقوله[132]:

يا أيها المحسنُ المشكـور من جِهَتِي
والشكـرُ من قبل الإحسـان لا قِبَلِي
ما كـان نومي إلا فـوق معرفتي
بأنَّ رأيـكَ لا يُؤْتَى من الـــــزلل[133]

---

130 شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: 380.

131 الديوان: 3 / 186، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، وفي معنى البيت يقول: يريد العاذل من قلبي أن ينساكم ويسلو عنكم وأنا مطبوع على حبكم، فكيف أتنقل عن شيء طبعت عليه والطبع لا يقبل التنقل،

132 الديوان: 3 / 258 ، 259 ، 260.

أَقِلْ أنِلْ أقْطِعْ أحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعـدْ
زِدْ هشَّ بَشَّ تفضَّـلْ أَدْنِ سُرَّ صِـلِ[134]
لعـلَّ عَتْبَكَ محمــودٌ عواقِبُـهُ
فَـرُبَّمَا صَحَّتِ الأجســـــــامُ بالْعِلَـلِ

وقوله:
بشــر تصــور غايــة من آية
تنفى الظنــون وتفســد التقيبا

وقوله[135] مشيرا إلى بعض أفكار الفلاسفة وآرائهم:

نخالَفَ النـاسُ حتى لا اتِّفَـاقَ لهُمْ
إلاَّ على شجبٍ والخُلْفُ في الشَّجَـبِ[136]

---

[133] ما كــان نومي إلا فــوق معرفتي: أي ما لحقني السهو والتفريط إلا بعد سكون نفسي إلى فضلك وحلمك،

[134] أقل: من الإقالة، العثرة، أنل: الإنالة: الإعطاء، أقطع: من قولهم أقطعه أرض كذا، أي جعل له غلتها رزقا، أحمل: من قولهم حمله على فرس ونحوه، : أي جعله ركوبة لهن علك أي ارفع جاهي من التعلية، وسل: من التسلية، وهي إذهاب الغم، وأعد:أي أعدني على موضعي من حسن رأيك، وزد:أي زدني من إحسانك، وهش:أمر من قولهم هش إلى كذا يهش، وبش: من قولهم بش بالرجل يبش: أي ابتسم إليه وآنسه،

[135] الديوان: 1 / 110.

فقِيلَ تخلُصُ نفسُ المـرءِ سالمةً
وقِيلَ تشْرَكُ جسمَ المـرءِ في العطبِ
ومن تفكَّر في الدنيا ومهْجتِـهِ
أَقامَهُ الفكــرُ بين العجْـزِ والتعبِ[137]

وقد ذهب صاحب سرح العيون إلى أنه كان على مذهب الهوائية أو المادية لقوله[138]:

تبخـلُ أيْدِينَـا بـأَرْواحِنَا
على زمـانٍ هـيَ من كسْبِـهِ[139]
فهـذه الأرواح من جـــوِّهِ
وهـذه الأجسـامُ من تُرْبِـهِ[140]
لو فكَّــرَ العاشــقُ في مُنْتَهَى
حُسْــنِ الذي يَسْبِيـهِ لم يُسْبِـهِ

---

136 الشجب: الهلاك، والخلف: الاختلاف، والمراد بالنفس: الروح، يقول : جرى خلف الناس في كل شيء ولم يتفقوا إلا على الهلاك،

137 المهجة: الروح، يقول: من فكر في الدنيا أنه مفارقها أتعبته، لما يجده فيها من الأسف عليها،

138 الديوان: 1 / 244

139 يقول إننا نحرص على أرواحنا ضنا بها على الزمان، مع أنها مما كسب الزمان لا من كسبنا نحن،

140 يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف - هو الروح - وجوهر كثيف - هو البدن - فجعل اللطيف من الهواء، والكثيف من التراب،

لم يُرَ قَــرْنُ الشمـس في شرْقِهِ
فشكَّتِ الأنفُـسُ في غَرْبِـهِ[141]
يموتُ راعي الضَّـأنِ في جهلـه
موتَـــةَ جالِينُوسَ في طِبِّـهِ[142]

وقد حاول صاحب خزانة الأدب أن يتهمه في عقيدته لبعض هذه الأبيات التي ذكرناها، وينبغي أن نعرف أن هذه الأفكار لم تكن تأتي في شعره عن عقيدة أو مذهب، إنما كانت تتسرب إليه من ثقافته الفلسفية، فهو ليس شاذا وليس على مذهب الهوائية، إنما هو شاعر من شعراء القرن الرابع الذين كانوا يتصنعون الأفكار والصيغ الفلسفية [143]،

141 قرن الشمس: أول ما يبدو منها، معناه أن كل حادث لا بد أن ينتهي إلى الزوال، كالشمس من رآها طالعة لم يشك في غروبها،
142 قوله في جهله وفي طبه: حالان، يقول: إن الموت حتم على رقاب العباد لا ينجو منه إنسان،
143 خزانة الأدب للبغدادي 380/1، وشوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص: 241 ، 242،

ألفاظ وأساليب الشعر المولد

أجمع مؤرخو الأدب على أن لفظة "المولد" تدل على مَنْ أصله ليس عربيا محضا، جاء في لسان العرب، المحدث من كل شيء، ومنه المولدين من الشعراء، وإنما سمو بذلك لحدوثهم، والمولدة ـ الجارية المولدة بين العرب تنشأ مع أولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها فن الأدب ـ ويسمى الكلام مولدا إذا استحدثوه، ولم

يكن من كلامهم فيما مضى[144]، وفي تاج العروس، والمولدة المحدثة من كل شيء ومنه المولدون من الشعراء، وإنما سموا بذلك لحدوثهم وقرب زمانهم وهو مجاز،[145]

لغة الشعر المولد قد اختلفت عما كانت عليه اللغة الشعرية في العصرين الجاهلي والإسلامي ـ الأموي، وأن هذا الاختلاف أو التطور ظهر في جميع عناصر التعبير الشعري كالألفاظ وأساليب الصياغة ومنهج القصيدة، وأوزانها وقوافيها، وأسلوب تعرف به، كما أن للخمريات لغة شعرية وطرائف تعبير تختلف بها عن فن المديح, وللزهديات ألفاظها وصياغاتها الشعرية التي تميزها عن الغزل أيضا ألفاظه وصياغاته وعواطفه التي تميزه عن الهجاء أو الوصف أو الشعر التعليمي،

ولعل ابن المعتز المتوفى سنة 296 هـ، أول من ألف كتابا وضع فيه عبارة (الشعراء المحدثين) في عنوانه وهو (طبقات الشعراء المحدثين) وهذه اللفظة التي اختارها كثير من المصنفين والنقاد في العصر العباسي للدلالة على شعراء القرنيين الثاني والثالث الذي ذكر منهم ابن المعتز في كتابه هذا (132) شاعرا وشاعرة، وكان غرضه كما قال في المقدمة ذكر الشعراء الذين مدحوا الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس[146]،

144 لسان العرب ، مادة "حدث"
145 تاج العروس 2 / 542.
146 طبقات الشعراء المحدثين ص" 18 وما بعدها،

وقد ترجم صاحب الأغاني الذي ألف كتابه في النصف الأول من القرن الرابع لمائة وأربعة عشر شاعرا[147] من هؤلاء، ومع أن أكثير النقاد والمصنفين القدامى قد استعملوا لفظة المولدين للدلالة على أولئك الشعراء أنفسهم، إلا أن اختيار ابن المعتز قد وقع على لفظة المولدين كما رأينا، لأنها كانت سائرة منذ القرن الثاني، ولعل ابن المعتز وغيره قد فضلها لأن لفظة المولد تدل على من أصله ليس عربيا محضا، وهذا قد يغيض بعض الشعراء المتعصبين لأنسابهم العربية ، علما بأن الطبقة الأولى من الرواة المتعصبين للقديم كانوا يستعملون لفظة المولد في معرض الاستخفاف أو الذم، ولكن الاستعمال وحد معنى الكلمتين رغم اختلاف الاشتقاق والدلالة،

ويبدو أن استعمال أهل الأدب كلا اللفظتين المولد والمحدث، قد بدأ من أوائل القرن الثاني للهجرة، لأن أبا عمرو بن العلاء الراوية المشهور، (المتوفى 154 هـ)كان يقول عن بعض شعراء عصره(لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته)[148]، ونبرة الاستخفاف واضحة في عبارة أبي عمر بن العلاء، وقد ذكر ابن قتيبة أنه كان يعني جريرا والفرزدق إذا كانا محدثين بالنسبة إليه،

ولم يخف رواة القرن الثاني المتعصبون عصبيتهم الفنية للشعر القديم ونبرة الشعر الاستخفاف بشعر المولدين من معاصريهم، قال الأصمعي عن ابن الأعرابي(جلست إليه ثمان حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي) وسئل عن المولدين فقال:

147 قارن فهرس الأغاني بفهرس طبقات ابن المعتز لملاحظة ذلك،

148 مقدمة الشعر والشعراء، وقد روي هذا القول أيضا بذكر كلمة (المولد) مكان (المحدث)

(ما كان من حسن سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم)[149]، وقد سئل الأصمعي نفسه عن مروان بي أبي حفصة، وكان معاصرا له فقال: (كان مولدا ولم يكن له علم باللغة)، في حين كان رواة آخرون كما يرى هو نفسه يخالفون رأيه ويختمون الشراء بمروان بن أبي حفصة ولا يكترثون ببشار زاعمين انه مولد لعلمهم أن هذه الصفة كافية للحط من منزلة الشاعر[150]،

ولعل هذا التعريض أو الذم كان يختفي كلما دارت عجلت الزمن وازداد امتزاج العرب بالعجم، على أن النقاد ربما فضلوا كلمة المحدثين للإشارة إلى المعاصرين من شعراء رمانهم قال أبو عبيدة[151]: (عن أبي نواس ـ كان أبو نواس من المحدثين كامرئ القيس للمتقدمين) وكذلك كان يفعل أكثر أهل الأدب والرواية عندما يتحدثون عن معاصريهم حتى إذا تقدم الزمن إلى القرن الرابع والقرون التالية صارت تسمية شعراء القرنيين الثاني والثالث بالمولدين هي السائدة في كتب الأدب والبلاغة والنقد كما نرى عند ابن رشيق القيرواني، وأبي الفتح بن جني، وعبد القاهر الجرجاني والعسكري وابن الأثير وغيرهم،[152]

على أن لفظ أو نعت المحدثين ظل جاري الاستعمال في الوقت نفسه وللغرض نفسه، قال صاحب الأغاني في مطلع ترجمة بشار بن برد: (وتقدمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة)، وكان الصولي وهو من ألمع ما اشتغل بجمع شعر المولدين يكثر

---

149 العمدة: 2 / 90،
150 الموشح: 251،
151 الأغاني :
152 العمدة لابن رشيق القيرواني، 2 / 90، وكتب المصنفين الآخرين المذكورين،

ترديد لفظ المحدثين كما كان المرزبان وهو من كبار أدباء ومصنفي القرن الرابع أيضا، يردد مثل هذه العبارة بكثرة قوله: (وقد سلك جماعة من الشعراء المحدثين سبيل الأوائل في المعاني التي أغرقوا فيها)[153]،

والشعراء المولدون أو المحدثون كثيرون، فمنهم من نال شهرة واسعة ومنزلة شعرية مرموقة، كبشار بن برد وأبي نواس، ومطيع بن إياس، ومسلم بن الوليد[154]، الذي قال عنه ابن قتيبة: (مسلم أول من ألطف في المعاني، ورقق في القول، وعليه يعول الطائي، وعلى أبي نواس)، وقال الحصري: (ومسلم أول من لطف البديع، وكسا المعاني حلل اللفظ الرفيع)، وقال ابن رشيق[155]: (وخير الشعر شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها، ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة، وكثرا منها في أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس، وجسرهم عليها، على أن مسلما أسهل شعر من حبيب وأقل تكلفا، وهو أول من تكلف البديع من المولدين، وأخذ نفسه بالصنعة وكثر منها ولم تكن في الأشعار قبل مسلم إلا النبذ اليسيرة) والحسين بن الضحاك المعروف بالخليع، وأشجع السلمي، والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة، والسيد الحميري، والحسين بن مطير، وأبي العتاهية، وإبان اللاحقي، من شعراء القرن الثاني،

وكأبي تمام ودعبل الخزاعي، والبحتري وابن المعتز وابن الرومي من كبار شعراء القرن الثالث، ومنهم من حظي بشهرة أضيق ومنزلة شعرية أدنى كصالح بن عبد القدوس، ومسلم الخاسر، وابن الخياط، وأبي دلامة وحماد عجرد، ووالبة بن الحباب

153 الموشح ص: 245،
154 الشعر والشعراء: 336،
155 ابن رشيق ، 2 / 85،

والعكوك "علي بن جبلة" من القرن الثاني، وكعلى بن الجهم، وإبراهيم الصولي، ويحي بن علي المنجم، ويزيد المهلبي، وخالد بن زيد الكاتب، وأبي العيناء، والعطوي، وابن أبي فنن وغيرهم من شعراء القرن الثالث الذين غطت عليهم شهرة البحتري وابن المعتز وابن الرومي،

والواقع أن لفظة ـ المولدين ـ لم تصبح اصطلاحا يدل على شعراء هذا العصر بسبب تطور معاني الشعر وتزايدها فقط بل استعملت أول ما استعملت بناء على ما حدث للغة العربية عامة وللغة الشعر خاصة من توسع وتحول بعد شيوع الألفاظ الأعجمية والمولدة والمعربة وظهور تعابير وطرق صياغة شعرية مستحدثة منذ أواسط العهد الأموي أو أواخر القرن الأول للهجرة،

من أجل هذا اقتصر اللغويون والنحاة الاستشهاد على الشعر الجاهلي وشعر القرن الأول الهجري، إلا أن هذا الاستعمال سرعان ما وسع معنى كلمتي التوليد والمولدة فأخرجهما أولا من المعنى الأصيل وهو إنجاب النسل المولد إلى مدلول توليد اللفظ المستحدث، ثم على توليد واستحداث اللفظ والمعنى معا، ولهذا ذكروا التوليد في الألفاظ وقالوا (الألفاظ المولدة) وذكروا التوليد في المعاني وقالوا (للمعاني المولدة) حتى إذا فاضت المعاني في شعر المولدين أو المحدثين قالوا حتى المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ[156] وصار معنى المولد الذي تذكره القواميس وكتب اللغة المحدث من كل شيء ،

ومما لا شك فيه أن ما طرأ على لغة الشعر العربي منذ أواخر العهد الأموي هو الذي حمل أبا عمرو بن العلاء الراوية المشهور إلى إطلاق قولته المشهورة، لقد أحسن هذا (المولد) حتى هممت أن آمرا صبياننا بروايته[157] قاصدا بذلك جريرا والفرزدق وهما أكبر شعراء زمانه ومستخفا بلغتهما لاعتقاده أو لاقتناعه بتغير هذه اللغة واختلافها عن لغة الشعر القديم، وهذا الموقف هو الذي حمل اللغويين والنحاة على إيقاف الاستشهاد بالشعر عند إبراهيم بن هرمه وابن ميادة ورؤبة بن العجاج والحكم الخضري والقول عن هؤلاء الأربعة بأنهم ساقة الشعراء، أي آخر الذين يعتد بلغتهم ويستشهد بأشعارهم[158]،

لقد كان الأسلوب العربي الأصيل في بئات العلماء من أصحاب اللغة والقرآن والحديث متوارثا، وكان الأسلوب المولد يسرى خارج بيئات هؤلاء العلماء من طبقات الشعب المختلفة، ولهذا نجد لغة الشعر وهو استجابة طبيعية لمشاعر شعبية مختلفة تصطنع في القرن الثاني الأسلوب المولد، ومع ذلك كثيرا ما التقى الأسلوبان [(159)]،

ولا شك أن تطور اللغة العربية المستمر كان القاعدة التي انطلق منها الأسلوب الجديد، والواقع أن العربية كانت قد خطَت خطوة لغوية كبيرة بظهور الإسلام وانتشارا أصفى لغاتها ولهجاتها وأحلاها بسيادة لغة القرآن الكريم، وقد جاء الإسلام نفسه بألفاظ جديدة ومنح لكثير من المفردات القديمة معاني مستحدثة،

---

157 اتجاهات الشعر العربي، ص: 84 وأنظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيق، ص: 64.

158 اتجاهات الشعر العربي،

159 اتجاهات الشعر العربي، ص: 84.

كما يلاحظ في الألفاظ الإسلامية الكثيرة، كالمسلم والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق والصلاة والصيام والزكاة والحج وأسماء الشعائر والفرائض،

ثم زاد توسع اللغة خلال القرن الأول حتى إذا أقبل القرن الثاني امتزجت الأقوام والثقافات وازدهرت المعارف والعلوم وتقدم ركب الحضارة، حتى انبسطت آفاق اللغة فيه إلى أبعد الحدود، ولم يكن اقتباس الألفاظ الأعجمية بصيغها الأجنبية ولا استعمال المعرب والدخيل، الظاهرتين الوحيدتين البارزتين لهذا التوسع، بل كان الدافع الأكبر إليه طبيعة اللغة العربية بصفتها لغة راقية متكاملة، وامتيازها بمجموعة كبيرة من الخصائص والوسائل التي مكنتها من التطور دون أن تفقد شخصيتها اللغوية وأتاحت لها التوسع دون أن تضيع طابعها القومي المكين، وقد أطنبت كتب اللغة في بسط هذه الخصائص كالقياس والاشتقاق والتصريف والإبدال والقلب والنحت... الخ،

فإذا أضفنا إلى ذلك ثروتها اللفظية الهائلة في لهجاتها الأصلية المتعددة أمكننا إدراك التوسع اللغوي الذي بدأ بظهور الإسلام ثم مضى يشتد ويتزايد في القرون التالية،

والحقيقة أن اللغة العربية لم تكن منعزلة عن اللغات الأخرى في العصر الجاهلي نفسه إذ كان أهل الحواضر العربية كالحيرة ويثرب (المدينة) ومكة والطائف ونجران يحتكون بالفرس والنبط والسريان والروم والأحباش قبل الإسلام، وبعده بحكم الجوار والعلاقات التجارية والسياسية والاجتماعية والدينية، وقد ازداد هذا

الاحتكاك واتسعت رقعته خلال الفتوحات الإسلامية، ثم اشتد عندما استوطنت القبائل في الأمصار والأقطار المفتوحة من الشام والعراق وفارس ومصر وشمال إفريقيا والأندلس وظهر إثر ذلك كله في الكلام الجاري أو لغة العامة، وفي لغة الكتابة والخطابة والشعر،

وكان من أسباب اختلاف لهجات أو لغات المناطق والأمصار المتعددة اختلاف لهجات القبائل العربية النازلة فيها "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة ألفوها من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر [160]،

إن الجاحظ وهو أول من لاحظ هذه الظاهرة هو الذي ذكر أن تأثر اللغة العربية باللغات الأخرى وخاصة الفارسية كان قديما أي سبق عصره بكثير وأن هذه الظاهرة لم تكن في العراق فقط بل كانت في الحواضر الحجازية نفسها قوله:(ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ "الخرير" ويسمون السميط "الروذق", ويسمون المصوص "المزو" ويسمون الشطرنج "الاشترنج" إلى غير ذلك من الأسماء، وكذا أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة "بال" وبال بالفارسية)،

ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بلاد النبط وأقصى بلاد العرب، ويسمى أهل الكوفة الحوك باذ روح الفارسية والحوك كلمة عربية، وأهل البصرة

---

160 البيان والتبيين 1/32-33

إذا التقت أربع طرق يسمونها مربعة ويسميها أهل الكوفة "الجهارسو" والجهارسو فارسية، ويسمون السوق أو السويقة "وازار" والوازار فارسية ويسمون "القثا" خيارا والخيار فارسية [161]،

ولم يقتصر استعمال بعض الألفاظ الأعجمية قبل الإسلام وبعده على لغة التخاطب أو الخطب بل تعداها إلى الشعر لغة الجاهلي نفسه"، ومن هذا القبيل ما ورد في شعر عدى بن زيد العبادى والمنخل البكري والأعشى لسكنى الأول في الحيرة وتردد الآخرين، عليها كما ترددت بعض الألفاظ التي يظن أنها مأخوذة عن لغات قديمة أخرى كالسريانية في الشعر المنسوب إلى ابن أبي الصلت وغيره،

ولهذا لم يكد يمضي زمن يسير على استقرار العرب في العراق والشام وإفريقيا حتى تعرضت اللغة العربية الأصيلة إلى التحول والتغير والتوسع ولعل القصة التي تروي نشأة علم النحو في عهد الإمام علي خير مثال على إدراك العرب خطر هذا التحول فسارعوا إلى وضع النحو وتثبيت الألفاظ وجمع تراث العرب اللغوي والشعري للحفاظ على لغتهم وصيانتها من المسخ والتبديل،

قال السيوطي: "والذي نقل اللغةَ واللسانَ العربيَّ عن هؤلاء (يقصد القبائل) وأثبتَها في كتاب فصيَّرَها علمًا هم أهلُ البصرة والكوفة من أمصار العرب [162]،

---

(2) البيان والتبيين.

161 المصدر نفسه.

162 المزهر 212/1، طبعة دار أحياء الكتب العربية،

وضح أن الاستقرار المدني الآخذ بأسباب الحضارة والتقدم الطبيعي في هذا المضمار بحكم العوامل المختلفة كالاختلاط وازدياد الحاجات والحرف والصناعات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ونشأة العلوم ونموها والمباشرة بأعمال الترجمة والنقل من اللغات الأخرى وتزايدها المضطرد،

كل هذا كان يفعل فعله في لغة التخاطب ولغة الكتابة والشعر، كانت هذه الظاهرة اللغوية واضحة منذ أواسط القرن الأول الهجري وقد بانت في لغة الحجاز وخاصة في غزل عمر ابن أبي ربيعة وإضرابه كما ظهرت بوضوح أكثر في العراق ومناطق الخليج كما يلاحظ أن شعر جرير وشعراء الكوفة والبصرة الآخرين ولا سيما في الغزل والهجاء وشعر الخمرة،

ولهذا وصف جرير والفرزدق بالتوليد كما أشار أبو عمرو بن العلاء، قال ابن رشيق في العمدة إن في أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما توليدات عجيبة لا يقع مثلها للقدماء وأكبر الظن أنه لا يقصد المعاني فقط بل الألفاظ أيضا لأن الكلام يفتح بعضه بعضا[163]،

وكان في مقدمة ما أشاعته الحضارة في الشعر العربي دفع لغته إلى السهولة وأبعاد صياغاته تدريجيا عن المعاني القديمة وتجنبه الألفاظ التي راحت تزداد غرابة

---

(2) العمدة 218/2.

163 العمدة 2 / 238.

في نظر سكان المدن حتى بدت وحشية وسميت كذلك وحتى صارت السهولة في الألفاظ صفة عامة في شعر العصر العباسي الأول،

يقول الجرجاني في الوساطة، (فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك طاهرا في أصل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الغليظ الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلم وعر الخطاب حتى انك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ولأجله قال النبي (صلى الله عليه وسلم) من بدا جفا ولذلك تجد شعر عدى (بن زيد) وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان لملازمة عدى الحاضرة وإبطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب، وترى رقة الشعر أكثر ما نابتك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك... فلما ضرب الإسلام بعبراته واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر, ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف, اتخذ الناس من الكلام ألينه وأسهله، وتجاوزا الحد في طلب التسهيل, حتى تسمحوا ببعض اللن, وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق, فانتقلت العادة وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، وترققوا ما أمكن, وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ" [164]،

ويقول الصولي: (أعلم أعزك أن ألفاظ المحدثين منذ عهد بشار كانوا كالمتنقلة إلى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع

---

[1] الوساطة: 23, 24.

164 الوساطة: 23, 24.

والابتداء والطبع والاكتفاء، وإنه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عينا, كما لم يرد المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة من ذكر الصحارى والبر والوحش والإبل والأخبية فهم (يعنى المحدثين) في هذه أبدا دون القدماء كما أن القدماء فيما لم يروه أبدا دونهم، وقد بين هذا أبو نواس بقوله:

صفةُ الطّلُولِ بلاغـة القِدْمِ
فاجعلْ صِفَاتِكَ لابْنَةِ الكَرْمِ[165]

لا تُخْدَعنّ عنِ التي جُعِلَتْ
سُقْمَ الصحيحِ، وصحـةَ السُّقْمِ
وصديقـةِ الـروحِ التي حُجِبَتْ
عن ناظريْـكَ، وقيّم الجسـمِ
صهباءَ فضّلها الملـوكُ على
نُظرائِهَـا بفضيلَـةِ القَـدْمِ[166]

ثم يقول:

إنما الدنيا كبيـض عملـوه ينمـرش
فحشـاه البرمكيـون وقـال النـاس كش

---

165 القدم: الزمان القديم، وقد أراد القدماء الذين كانوا في الزمن القديم،
166 النظراء: الواحد نظير: المثل، القدم: السبق،

وكش في كتب اللغة مصدر كشّ يكَش أو صوت أو هدر وكش بفتح الكاف فارسية، معناها حسن ملائم، والبيض البرمش ما شوي نصف شين،

إن هذه الظاهرة على شيوع اللفظ الأعجمي والدخيل والعامي وغيره كانت بارزة في شعر المولدين والمحدثين، إلا أنها لم تكن السبب الوحيد الذي دفع الرواة والنقاد القدماء إلى ثقتهم بهذه الصفة وتميزه عن الشعر القديم، ولا ريب في أن المزية الكبرى التي اكتسب بها هذه التسمية تمثلت في الصياغة التعبيرية التي استحدثها التوليد ثم أدرجها في لغة الشعر والنثر،

وكان لنشأة العلوم المختلفة وتطويرها ولا سيما علوم اللغة والنحو والصرف وعلم الكلام والجدل والفلسفة والتفسير والحديث والأدب أدوار فعالة في تغذية عملية التوليد وتميتها ومضاعفة تأثيرها في لغة الشعر والنثر،

وقد ظهر هذا التوليد المتواصل لما القدماء والمعاصرون في نواحي أخرى، بالإضافة إلى ناحية اللفظ، ظهر في غلبة الرقة والسهولة من لغة المولدين وبروزها كظاهرة فنية بارزة لأسلوبهم، وفي ميل الشعراء إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة والقوافي الجميلة، وفي استعمال المفردات بالاصطلاحات العلمية والفلسفية المولدة، وفي الاقتراب من لهجات العامة والتأثر وإمالاتها واختصاراتها وصياغاتها الصوتية واللفظية، بل الذهاب إلى حد استعمال العاص والمبتذل، وأخيرا ظهر في طلب الصنعة البديعة اللفظية والمعنوية والتقيد بقواعدها الجديدة، والتمسك بها كصرف فني يفرض نفسه على لغة الشعر والنثر، وهذا ما حدا بابن رشيق القيرواني إلى

القول:(إن العرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون) وقد أدرك ابن رشيق بلا شك ما ذكره الأصمعي والجاحظ من قبل فأكد دور الشعراء المحدثين في هذا المجال، ولا سيما جانب الصنعة البديعية فقال الأصمعي: (أول من فتق البديع بشار بن برد وابن هرمة وابن ميادة ساقه العرب وآخر من يستشهد بشعره، ثم تبعهم كلثوم بن عمر العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتبع هؤلاء حبيب الطائي والوليد والبحتري وعبد الله بن المعتز)،[167]

لقد خضع الشعراء وغيرهم بصرف النظر عن جنسيات آبائهم وأمهاتهم إلى هيمنة العصر وسلطان حضارته وسحرها، والوراثة بمفهومها الديني ليست قادرة على تكييف الشخصية الأدبية أو العلمية في بيئة واسعة، تتعدد فيها العوامل وتندمج فيها الثقافات والمعارف لتؤلف ذلك المركب المتمثل في الشعر والنثر والعلوم العربية الإسلامية المختلفة، وسائر مظاهر الحضارة العباسية، وهذا لا يعني أننا ننكر الطابع الفارسي في أدب إنسان ولد ونشأ وترعرع في بيئة فارسية خالصة، ثم تعلم العربية وكتب بها،

كما أنني لا أستطيع أن أعزو للوراثة ما في شعر المولدين من خصائص فنية جديدة بحجة أن آباءهم أو أمهاتهم كانوا أعاجم، لأن سلطان البيئة العربية الإسلامية الجديدة، كان أقوى من عامل الوراثة الشخصي، الذي به تثبت فارسية بشار، ونبطية أبي العتاهية، وهندية أبي عطاء السندي، ويونانية أبي تمام، وابن الرومي،

---

[167] هدارة اتجاهات 82،

وهم في كل ذلك عاشوا حياة عصرهم بملء فيه وتمثلوا حضارته بكامل مصادرها وخصائصها، فكان لهم هذا النتاج الشعري الحضاري العربي المتطور، بما انصب في نهره الكبير من روافد الحضارات الفارسية واليونانية والهندية، وأوشال الحضارات العراقية القديمة،

ومهما يكن من أمر فإننا نقول لقد تطور الشعر في القرنيين الثاني والثالث، بما حمله إلينا من خصائص لفظية وتعبيرية تجعلنا نشعر بأن لشعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهم جوا خاصا من التأثيرات والإيماءات يختلفون بها عن شعراء الجاهلية والإسلام، وأن هذا التطور كان ثمرة عدد غير قليل من الأسباب والظروف الاجتماعية التي نجمت عن الاستقرار في المدن وأدت إلى تأثر اللغة العربية الأصلية،

معاني المولدين والمحدثين

عني النقد العربي القديم عناية بالغة بمعاني الشعر كما عني بألفاظه وأساليبه ولغته، وكانت لذلك أسباب ودوافع، وتابع النقاد في ذلك فعرفوا الأدب في عصرنا هذا فاستخرجوا مجموعة من الخصائص العامة من ألفاظ الشعر العربي وأساليبه، ومجموعة أخرى من الخصائص لاحظوها في معانيه وأفكاره وأخيلته وصورة، وهنا يجدر بنا أن نلفت النظر إلى حقيقة في غاية الأهمية، وذلك أن الالتزام بمناهج البحث وأصوله يجعل من دراسة معاني الشعر موضوعا شائكا كثير المزالق والمصاعب والعقبات، فقد انحصر الشطر الأعظم من خلافات النقاد القدامى في ناحية المعاني سواء من ذلك المعاني المخترعة أو الجديدة، والمعاني المولدة والتابعة المسروقة، اختلفوا أولا في أمر اختراع المعاني وجواز اختصاص الشاعر بها أم لا؟ محتجين بأنها تدور في خواطر الثاني أو هي مطروحة في الطريق كما زعم الجاحظ، ومهد هذا الخلاف إلى انقسام النقاد إلى أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى، واختلفوا في مضمون المعنى وإجراء هذا المضمون، وحق الشاعر في نسبة الاختراع إليه، استنادا على نصيبه من هذه الإجراء، وأدت كثرة الشعر والشعراء وتداول المعاني فيما بينهم على مر الأجيال واختلاف طرائقهم في تناولها وصياغتها إلى تعقيد خلافات النقاد وإلى توسيعها وتطويرها وتفسيرها. فظهرت موضوعات واصطلاحات منها الأخذ وأنواع الأخذ، والإبداع وأنواع الإبداع، والتوليد وضروب

التوليد، وأخيرا السرقة الشعرية وفنون أحابيل السرقات...واختلفوا كالعادة في كل موضوع من هذه الموضوعات إلا أن الموضوع الأخير، أي السرقة والسرقات، كان الميدان الأكبر لمعارك النقد والنقاد وزاد الطين بلة وبلات فأبلو به تاريخ الشعر العربي من مشاكل الائتمان والشبة الكاذبة والإغارة والسرقة،

وهكذا يقع من يدرس معاني الشعر بين حيص بيص! فكيف نحفظ حق الشاعر بالمعنى المخترع أو المولد من حالة اختلاف النسبة، وتنازع شعراء عدة في هذا البيت أو ذاك وتلك العقيدة أو القطعة أو تلك؟ وإذا صرفنا النظر عن هذه المشكلة لقلة الاختلاف في نسبة المعاني المخترعة أو الجديدة برزت المشكلة الزمنية أو التاريخية فأكثر القصائد غير مؤرخة فكيف نحدد مواقعها الزمانية والمكانية؟ لهذا كله أصبحت دراسة المعاني، دراسة نقدية تاريخية دقيقة محفوفة بمصاعب لا عداد لها، لكن هذا لا يبرر التهرب من هذا الموضوع، فهو طريف حقا ومجال الإبداع فيه مفتوح،

والفترة العباسية لها نصيبها الأكبر من هذه المشاكل، فقد جاءت بعد عصرين سابقين خلفا تراثا شعريا غنيا بالموضوعات والمعاني والأخيلة والصور، ولما كان هذا التراث قد جمع ودون في مطلع العصر العباسي فقد غدا قاعدة لانطلاق الدراسات النقدية، والمستودع الذي استخرج منه النقاد مساييرهم ومقاييسهم الذوقية وموازناتهم النقدية بين الشعراء، ومن هنا فرض التراث الشعري القديم سلطانه القوي على شعراء العصور العباسية وغير العباسية التالية، فلم يعد من السهل فرز المعاني الجديدة عن المعاني القديمة، وكان من أبرز نتائج هذا السلطان الفني تقوية

العصبية للقديم وفرض معاييرها على نتائج الشعري الجديد وكان من أهم نتائجها موجة الشطط والتطرف في موضوع السرقات الشعرية، مما يكاد الشاعر العباسي أو المولد يستنبط أو يبتكر معنى جيدا جديدا حتى ينبري أحد النقاد والرواة ليعلن أن المعنى مأخوذ أو مسروق من شاعر سابق كما فعل خصوم أبي تمام والمتنبي وهم كثيرون،

ولكن موجة الأحكام والموازنات النقدية، سواء كانت صادرة عن عصبية أم لا، كانت نافعة للنقد وتاريخ الأدب لأنها أمست مصدرا أو منطلقا لدراسة التطور والتجديد في أغراض الشعر ومعانيه وألفاظه فأحكام وانطباعات النقاد الأوائل، ومقالات النقاد المنهجيين، ورسائل البلاغيين وما استحدثه هؤلاء جميعا من موضوعات ومسميات ومصطلحات، ثم ما نجم بينهم من خلافات هي دليل من يدرس معاني الشعر ويرتاد مظانها القريبة والبعيدة،

ويمكن القول أن مقارنة المعاني اللاحقة بالمعاني السابقة كانت أقدم أدوات نقد المعاني، وتلك ظاهرة طبيعية يفرضها الصراع بين القديم والجديد، ويقوم عليها التمييز بين الابتكار والتقليد، والحق أن هذا المعيار أو المقياس النقدي كان أهم ما شغل نقاد العرب، فإنهم رأوا منذ عصر مبكر أن بعض الشعراء اهتدى إلى معاني جديدة لم يسبق إليها، وإن من هذه المعاني ما لم يستطع الشعراء مجاراته وسرقته، فتركوه لصاحبه ولم ينازعوه فيه، ومن هذه المعاني ما قلده اللاحقون وضمنوه شعرهم، ذكر ابن قتيبة أن جميل بثينة قال:

أُقلب طرفي في السمـاء لعلَّـهُ

يُوافقُ طرفي طرفها حينَ تَنْظُــرُ

فأخذ المعنى شاعر آخر هو المعلوط فقال[168]:

أليـس الليـل يُلْبسُ أم عمروٍ وإيانا فـــذاك بنـا تَدَانِي
بلى وترى السماءَ كمـا أراها ويعلــوها النهارُ كما علانِي

وأن مالك بن الريب سبق فقال:

العبـــــد يُقْرَعُ بالعصا والحــرُّ يكفيه الوعيـدُ

فأخذ المعنى غيره فقال:

العبـد يقــرع بالعصا والحــر تكفي الإشـارةْ

وقد أورد ابن قتيبة[169] أمثلة أخرى، وكذلك فعل المبرد، وابن المعتز وغيرهم من نقاد القرن الثالث الهجري وأدبائه[170]، وانفرد ابن المعتز بأول محاولة لوضع دراسة منهجية في كتابه "البديع".

وما يهمنا هو أن أوائل النقاد قسموا المعاني إلى معاني قديمة وأخرى محدثة أو جديدة[171]، ولكن أقوالهم كانت مفتقرة إلى منهج نقدي منظم، فلما تقدم الزمن

---

168 ابن قتيبة الشعر والشعراء 1 / 442
169 أحمد أحمد بدوي، أسماء النقد العربي عند العرب، 370، وما بعدها.
170 المصدر نفسه،371 ، والشعر والشعراء لابن قتيبة 1 / 355،

وتطور النقد، وكثر الكلام في تداول المعاني وفشى الاتهام بالسرقة والخلاف حول مفهومها، قام نقاد القرن الرابع ومن تلاهم بدراسة المعاني وتصنيفها بتفصيل أكثر وأسلوب دقيق وأطالوا الحديث في الأخذ والإتباع والتوليد والإبداع والسرقة محاولين وضع أسس ومعايير لكل ذلك وتعمقوا في تحليل المعاني متأثرين بالمنطق والفلسفة ولاسيما منطق أرسطو، ولم ينقض زمان طويل حتى صارت (الصناعة المعنوية) مادة أساسية من مواد النقد والبلاغة، قال العسكري: "والمعاني على ضربين: ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة، والآخر: ما يحتذبه على مثال تقدم، ورسم فرط. وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك، ويتوخى الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة"، والذي يهمنا هنا أن المعاني يمكن أن تقسم إلى معاني جديدة اخترعها شعراء العصر العباسي المتوالية، ومعاني قديمة سبقهم إليها شعراء العصريين السابقين،

ولكن هذا التقسيم لا يفي بالمطلوب أو لا يكفي لدراسة معاني الشعر، صحيح أن هؤلاء الشعراء قد أوجدوا كثيرا من المعاني سواء كانت جديدة من اختراعهم أو قديمة سبقهم إليها السابقون ومن هذه الناحية خلد فضل الشعراء المحدثين على النقاد أنفسهم لأنهم قدموا لهم طرقا وصورا لمعالجة معاني الشعر ودراستها كما ظهر فضل النقاد على الشعراء حينما تناولوا هذه الطرق المختلفة فدرسوها محاولين تعريفها وتحديدها وتقديمها للدارسين كأصول وقواعد تعين الشاعر،

---

171 المثل السائر لابن الأثير، الذي لاحظ تطور منهج دراسة المعاني ابتداء من ابن قتيبة، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، فالعسكري، فالآمدي، فالجرجاني، فابن الأثير،

والكاتب على توسيع طاقته ورفع كفاءته في استنباط المعاني وصياغتها، وقد برزت هذه الحالة أو هذا التعاون والتفاعل بين النقد والشعر والنثر عندما ظهرت البوادر المنظمة الأولى للنقد المنهجي، فقدامة بن جعفر (337هـ) الذي كان في طليعة النقاد المنهجيين المتأثرين بمنطق أرسطو، يدرس معاني الشعر ويحدد سبع خصائص للمعاني الجيدة هي: صحة التقسيم، وصحة المقابلة، وصحة التفسير، ثم التتميم والمبالغة والتكافؤ والالتفات، وكان الرواة وعلماء الشعر الأوائل قد تأملوا المعاني وأبدوا مثل هذه الملاحظات، وكان الأدباء والنقاد الذين سبقوا قدامة، كابن سلام، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، وابن المعتز، قد حاولوا تجديد وسائل تقييم المعاني وتحسينها وبلورة الطرائق الكفيلة بتحقيق ذلك،

وفي القرن الرابع وبعده قام النقاد والمنهجيون كالقاضي الجرجاني، وعبد القاهر الجرجاني والعسكري، بدراسات وأعمال مقدمة منهجية أوسع، تمخضت عن تفهم أعمق المعاني وعن وسائل وقواعد أكثر تساعد على رفعها إلى مستويات فنية أعلى، وكان هؤلاء النقاد جميعا يتدارسون معاني الشعراء القدامى والمحدثين وكأنهم يعتصرون مواهبهم ليستخلصوا حصائلهم النقدية والبلاغية، وكان الشعراء ولاسيما المثقفون ثقافة واسعة يستفيدون من هذه الحصائل للتوصل إلى معاني أفضل وأكثر وأغنى، وكانت ثمرة هذا التعاون المقصود وغير المقصود أدى إلى توسع معاني الشعر العباسي وتطوره وتنوع الصناعة المعنوية فيه،

والحق أننا بحاجة ماسة إلى دراسة نقدية تاريخية تكشف الأسباب المباشرة التي دفعت شعراء العصور السابقة إلى تطوير معاني الشعر، ولا تتكشف هذه الأسباب المباشرة بمعاودة الكلام العام عن تطور الحياة العقلية وانعكاس هذا التطور في معاني الشعر وألفاظه،

ولا شك في أن هذه الجهود منحت الشعراء الموهوبين قدرة أكبر على التحرك والنشاط في مجالات المعاني وآفاقها،

وقد تجلت هذه القدرة في اختراع الشعراء المحدثين طائفة كبيرة من المعاني الجيدة لم يجد النقاد صعوبة كبيرة في الإشارة إليها، إلا أنها أعني طاقات الشعراء قد تجلت بصورة أوسع كثيرا في عمليات تناول المعاني القديمة وتقديمها بصور وصياغات معنوية مستحدثة جديدة، وكان تدارس التراث الشعري القديم بعد تدوينه من أكبر الدوافع التي دفعت أجيال الشعراء إلى توسيع حركة تجديد المعاني، لم لا وقد غدت مراجعة أشعار المتقدمين قاعدة أو شرطا مفروضا على كل من يعني بالشعر ؟

إن نشاط الشعراء في هذا المضمار كان في مقدمة الأسباب والعوامل التي نتج عنها توسع دلالة لفظ أو مصطلح (المولدين) حتى شمل شعراء العصريين العباسيين الأول والثاني لكثرة توليداتهم، فقد أبيح لهم التصرف بالمعاني القديمة ثم قيد النقاد هذه الإباحة بعد ذلك، والذي يهمنا في هذه الدراسة، هو أن دراسات النقاد المنهجيين تدل على نشاط الشعراء المحدثين كان عظيما في ناحية المعاني والأفكار والصور والأخيلة، وأن تصرفهم بالمعاني الموروثة كان أبرز عناصر هذا النشاط وأهم

ما انشغل به النقاد ولاسيما المتعصبون للقديم، وإن الوسائل التي اتبعوها لذلك كانت متعددة الأنواع والأشكال، وأن المكانة الفنية العالية التي احتلوها أدت إلى تزايد الاحترام للشعر وإلى إضافته إلى التراث الشعري،

والواقع أن تجديدات شعراء الفترة قد شغلت رواة الشعر وعلمائه ومحبيه منذ صدر الدولة العباسية، يدل على ذلك أقوال وأحكام أبي عبيدة والأصمعي وأبي حاتم السجستاني وابن الأعرابي وجمهرة المعنيين بالشعر والشعـراء في العصر العباسي الأول: (132 - 248 هـ) وأقوال هؤلاء وغيرهم مبعثرة في تراجم الشعراء الكبار كبشار وأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد ـ صريع الغواني ـ وأبي تمام، حتى إذا جاء العصر الثاني رسخت مكانة المولدين والمحدثين واتنقل أنصارهم وخصومهم بعقد الموازنة بين كبار المولدين والمحدثين، أو بينهم وبين أساطير العشر القديم،

وكان الأديب في أواخر القرن الثالث كما يقول ابن المعتز، فيقل العمل في الشعر المحدث، ليستريح من أخبار المتقدمين وأشعارهم، وقد قيل لكل جديد لذة، والذي يستعمل في زماننا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم[172]

وإذا كان ابن المعتز لا يبسط القول في هذا فإن ابن رشيق القيرواني يؤكده بصراحة ودقة مستهلا كلامه، يقول ابن جني[173]:

---

[172] ابن المعتز، طبقات الشراء المحدثين، 87.

[173] ابن رشيق القيرواني، 2 / 224 ، طبعة حجازي بمصر 1353 هـ 1934 م

(المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ، ثم يعقب على هذا الحكم الخطير قائلا: والذي ذكره أبو الفتح صحيح بيّن، لأن المعاني اتسعت في الناس لاتساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمصروا الأمصار، وحضروا الحواضر، وتأنقوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره، ...)،

ثم قال:

(ولم أدل بهذا البسط كله على أن العرب خلت من المعاني جملة، ولا أنها أفسدتها، لكنها دللت على أنها قليلة في أشعارها، تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول، وهي كثيرة في أشعار هؤلاء، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق، ونصبوا الأعلام للمتأخرين، وإن قال قائل: ما بالكم معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلَّت في أيديكم المعاني وضاق بكم المُضْطَرَبْ ؟ قلنا: أما المعاني فما قلت، غير أن العلوم والآلات ضعفت، وليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم في نقص، وأن الدنيا على آخرها، ولم يبق من العلم إلا رمقه معلقا بالقدرة، ما يمسكه إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)[174]،

ويقرر ابن رشيق بعد ذلك أن بشار بن برد وأصحابه زادوا معاني ما مرت بخاطر جاهلي، ولا مخضرم، ولا إسلامي، فيقول[175]: (ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معاني ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي، والمعاني أبدا تتردد وتتولد، والكلام يفتح بعضه بعضا، وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني، حريصا

---

[174] العمدة 2 / 226 ،

[175] العمدة 2 / 226 - 227.

عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولده، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن، ويصرفه في كل وجه، وإلى كل ناحية، حتى يتمه ويعلم أنه لا مطمح فيه لأحد..)

ويطول البحث إذا أوردنا أقوال النقاد وغير النقاد بهذا الخصوص وما ذكرناه يكفي ويؤكد أن أعظم حركة تجديد في تاريخ الشعر العربي القديم، قد قامت على أيدي شعراء العصر العباسي الأول، ولسنا بحاجة إلى التنويه بما قام به بشار بن برد وأبو نواس، وأبو العتاهية، ومسلم بن الوليد وأبو تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمتنبي، بل والشعراء الآخرين الذين كانوا أقل نشاطا وشهرة من هؤلاء،

أقول لسنا بحاجة إلى الكلام عما أضافوه جميعا إلى تراث المعاني في الشعر العربي، المهم أن الحركات التجديدية التي أحدثوها في ميدان المعاني كانت أظهر من كل ظاهر، وإن كتب الأدب والتراجم والأخبار والنقد تزدحم بما يثبت هذا ويؤكده، وفيها يجد معرفوا الأدب والنقد المواد والشواهد التي تمكنهم من دراسة هذه التجديدات واستخلاص الخصائص العامة لمعاني الشعر وأفكاره وصوره وفق المناهج الأكاديمية وغير الأكاديمية الحديثة،

ومنذ قام مؤرخوا الأدب العربي في عصرنا هذا بمجهود عام واضح في هذا المضمار، ويأتي في مقدمة هؤلاء، جرجي زيدان، والأسكندري، والرافعي، ومحمود مصطفى، والسباعي، ومحمد بهجت الأثري، وبطرس البستاني، وأنيس المقدسي، وعمر فروخ، وحنا الفاخوري، وغيرهم ممن ألف كتبا عامة في تاريخ الأدب العربي،

التي تضع أمام الطالب والباحث الخطوط العريضة لخصائص الشعر العربي من ناحية الألفاظ والمعاني والأغراض والأخيلة، والأفكار،

وقد لاحظ الباحثون والنقاد أن معاني الشعر المولد متسعة ومتميزة بطوابع عقلية فرضتها ظروف الحياة وأغنتها مصادر الرقي الفكري، كترجمة كتب اليونان والسريان والفرس والهنود، ونشأة وتطور العلوم من نحو وصرف ولغة وتفسير وحديث وفلسفة وكلام، واحتدام المناظرات بين أصحاب الرأي والاجتهاد والجدل، ودعاة المذاهب والملل والنحل، واهتمام بعض الخلفاء كالرشيد والمأمون بتشجيع العلماء وإكرام الأدباء والشعراء، هذا بالإضافة إلى انتشار الثقافة بين الناس لكثرة المدارس والجوامع والحلقات والمجالس الأدبية، وتعاظم حركة التدريس والتأليف والتصنيف،

واتضح من هذا كله أن معاني الشعر المولد قد امتاز بخصائص عديدة، ولبشار بن برد معاني كثيرة مبتكرة، كقوله يصف ليلته وهو ينتظر امرأة كان يهواها فلما لم تأته أرسل إليها بهذه الأبيات يعاتبها قوله[176]:

يا ليلتي تـــــــــــزدادُ نكـرَا
من حبِّ مَنُ أحببتُ بِكـــــرَا
حـوراءُ إن نظـــــــــرت إليـ
كَ سقتـــكَ بالعينين خمـرَا

176 الأغاني 3 / 149 ، دار الثقافة بيروت لبنان 1983 م

وكـــأنَّ رجْـــــــعَ حديثِهـا
قِطعُ الريـــــــاض كَسِينَ زَهـرا
وكـــــــأنَّ تحت لسانهـا
هـــــــاروتَ ينْفثُ فيـه سِحـرا
وتخـــــــالُ ما جمعتْ عليـ
ـه ثِيابَهـــــــــا ذَهَبـا وعِطْرا
جِنِّيـــــــــةٌ إنسِيَّـــةٌ
أو بيـــن ذاك أجـــــلُّ أَمـرا

ومن معانيه المبتكرة قوله[177]:
إنما لـذَّةُ الجـوادِ ابنِ سلْـمٍ في
عطـــــاء ومَرْكَـــبٍ للّقـاءِ
ليس يُعطيك للرجـــاء ولا الخو
فِ ولكن يُلذُّ طعْـــمُ العطاءِ
يسقُط الطيـــرُ حيث ينتَثِرُ
الحبُّ وتُغْشى منـازل الكرمـاءِ

177 الأغاني 3 / 183،

لا أبالي صفـح اللئيم ولا تجـ
ري دموعي على الحَـرون الصَّفاء

وقوله[178]:

أيهـا الساقيـان صُبّا شرابي
واسقيـاني من رِيقِ بيضاءَ رُودِ
إنّ دائي الظَّمَـا وإن دوائي
شرْبةٌ من رُضابِ ثغـرٍ بَرودِ
ولها مَضْحكٌ كغُرّةِ الأَقـاحي
وحديثٌ كالوشيِ وشيِ البُـرُودِ
نزلتْ في السـواد من حبّة القلـ
ـبِ ونالتْ زيـــادةَ المسْتزيـدِ
ثم قالتْ نلقاكَ بعـد ليـــالٍ
والليـــالي يُبليـنَ كلَّ جديـدِ

ومن معانيه الشهيرة التي تداولها بعده الشعراء قوله[179]:

---

178 الأغاني 3 / 181 ،
179 الأغاني 3 / 194،

مَنْ راقبَ النَّـاسَ لم يَظْفَـرْ بحاجتهِ
وفاز بالطَّيِّبَـاتِ الفاتِكُ اللَّهِـجُ

والحقيقة أن وصف بشار بأنه أستاذ المولدين وأبو المحدثين جاء لكثرة معانيه المبتكرة ولنجاحه في صياغتها وتصويرها بأسلوب لم تمر بخاطر شاعر جاهلي أو إسلامي على حد تعبير قدماء النقاد، وشاهِدُهم في ذلك قوله[180]:

يا قــومُ أُذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشَــق قبل العيــن أحيانا
قالوا: بمن لا تــرى تهذي فقلت لهم
الأذن كالعيــن توفي القلب ما كانا
هل من دواءٍ لمشغوف بجاريـة
يلقى بلقيانهــا رَوحا ورَيحانـا

وقد تصرف بشار بهذا المعنى وكرره بصور أخرى قوله[181]:

يُزهّدني في حب عبـدةَ معشــرٌ
قلوبهـمُ فيهـا مخالفــــــــــَـةٌ قلبي
فقلت دعوا قلبي بما اختار وارتضى

180 الأغاني 3 / 232.
181 الديوان: ج / 1، ص: 353،

فبالقلب لا بالعيــن يُبصِرُ ذو اللبِّ
وما تُبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمـع الأذنـان إلا من القلب
وما الحسن إلا كلُّ حسنٍ دعا الصبا
وألَّف بين العشــق والعاشـق الصَبِ

واستعمال اللفظ الأعجمي بعجمته أو بصفته المعربة، لم يقتصرعلى ما ذكرنا من الشعراء، لأن هذه الألفاظ دخلت اللغة العربية وأضحت جزءا من ثورتها اللغوية، ولعل البعض من الشعراء من الذين استعملوها كانوا يجهلون أصولها الفارسية وغير الفارسية،

والواقع أن هذه الألفاظ لم تكن كثيرة جدا بل تأتي أو تستعمل كلما دلت إليها المناسبة وتطلبتها طبيعة الموضوع، فوصف الخمر مثلا يحتاج الشاعر إلى معرفة أسمائها وأسماء أدواتها وأوصافها ووصف مجالسها الذي يدفعه إلى ذكر الآلات الموسيقية وأسماء الأزهار وقس على ذلك،
ومن الأمثلة والشواهد الأخرى على استعمال اللفظ الأعجمي قول ابراهيم بن المهدي:

إذا ما كنت يوما في شجاها فقل للعبد يسقي القوم يرا[182]
فإن السقي مكرمة ومجـــد ومدفأة إذا ما ضفت قرا

[182] اليرا: لفظ فارسي ، معناه: ملآن.

فقد عدد له من المعاني المبتكرة أو المخترعة كقوله واصفا اعتذاره من شرب الخمرة استجابة لأمر الخليفة، وقد ذكره المبرد على أنه لم يسبق إليه، قوله:

أيها الرائحـــان باللـوم لوما
لا أذوق المـدام هلا شميما
نالني بالمـــلام فيها إمـام
لا أرى لي خلافـــة مستقيما
فاصرفاهـــا إلى سـواي فإني
لســـت إلا على الحديث نديما
كبـــر حظي منها إذا هيَ دارت
أن أراهـا أو إن أشـم النسيمـا
فكأني وما أزيـــن منهـا
قَعَـدِيٌّ[183] بُزَيِّـــنُ التحكيما
كلَّ عن حمله السـلاح إلى الحر
ب فأوصى المطيـــق ألا يقيما

والمعنى الذي أعجب به النقاد القدماء، وعدوه اختراعا تشبيه حاله بمال القعدى في البيتين الأخيرين، وهو الذي كان يزين ويؤيد التحكيم بين الإمام علي ومعاوية، ولا

183 قعدي، "القعدي" فرقة من الخوارج ترى الخروج وتأمر به، وتقعد عنه.

يكتفي بالأتباع عن الإسهام في القتال بل يدعو غيره إلى ذلك أيضا، والحق أن الابتكار لا يقتصر على هذين البيتين، فالصور التي صور بها نفسه في مجلس الندماء، تدل على الابتكار والتجديد والطرف، وقد أعجب ابن رشيق القيرواني بقول أبي نواس، في قوله[184]:

ودارِ ندامَى عطّلُوها وأدلجُوا
بها أثـرٌ منهـم جديدٌ ودارسُ[185]
حبسْتُ بها صحبي فجدّدتُ عهْدهمْ
وإني على أمثالِ تِلك لجالسُ
مَسَاحِبُ من جرّ الزّقاق على الثرى
وأضغَاثُ رَيْحَانٍ جَنيٌّ ويابس[186]
تدار علينا الراح في عسجديّةٍ
حَبَتْهَا بألوان التصاويرِ فارسُ[187]
قرارتها كِسرى وفي جنباتها
مهًا تدّرِيها بالقسيّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبُها
وللماء ما دارت عليه القلانس

184 الديوان: ص: 300،
185 أدلجوا: ساروا الليل كله، الدارس: العافي، الممحو،
186 الأضغاث: الواحد ضغث، القبضة من الهشيم، يختلط منها اليابس بالرطب،
187 العسجدية المنسوبة إلى العسجد أي إلى الذهب، حبتها: اختصتها دون سواها،

وقوله وهو معنى لم يتناوله أحد قبله[188]:

بنيْنا على كِسرى سمـاءَ مُدَامةٍ
مكلّلة ً حافَاتُهَـا بنُجُـــــــوم[189]
فلوْ رُدّ في كسرى بن ساسانَ رُوحهُ
إذنْ لاصطفـانِي دون كلّ نديـمِ

إليكَ أبا العبـاسِ، عدّيْتُ ناقتي
زيـادةَ وُدٍّ، وامتحـــانَ كَريـمِ
لأعلمَ ما تأْتي، وإن كنـت عالمًا
بأنـك، مهما قُلْتُ، غيـــر مَليـمِ

وقوله[190]:

قد قلتُ للعبـاسِ مُعْتـــذِرًا

---

[188] الديوان : ص: 493، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1994 م،

[189] أراد أن الكؤوس التي تعلوها صور كِسْرى تكللها فقاقيع الخمر التي هي كالنجوم، وبشأن هذا البيت قال أبو عبيدة: يعجبني من شعر أبي نواس قوله:
بنيْنا على كِسرى سمـــاءَ مُدَامةٍ مكلّلـة ً حافَاتُهَـــا بنُجُـوم[189]

[190] الديوان : ص: 361 ،

من ضعـــــفِ شُكْرِيهِ ومُعْترفـا
أنت امــرؤ جلّلْتني نِعَمًـــا
أوْهَتْ قوَى شكـــري فقد ضَعُفَا
فإليـكَ قبل اليـــوم تَقْدِمَةٌ
لاقَتْـك بالتصْـــــريح منكشفا
لا تُسْدِيـــنَّ إليَّ عارفةً
حتى أقـــــومَ بِشكْرِ ما سَلَفَا

وقوله في صفة النساء الخمارات، وهو تشبيه لم يسبق إليه:
وتحت زنانيرٍ شَـدَدْن عقــودها
زنانيـرُ أعكانٍ[191] مقاعدها السرْ

وقوله وهو من باب المعاني والأوصاف المختلفة[192]:
في كؤوسٍ كأنهـــن نجـومٌ
دائـرات بُرُوجُهَـــــا أيْدِينَـا

191 اللسان مادة: عكن: العُكَنُ والأعكان: الأطواء في البطن من السِّمَن،
192 الديوان : ص: 507،

طالعاتٍ مع السّقـــاةِ علَيْنَا
فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْـــــنَ فِينَا
لو ترى الرَّبَ حولها من بعيـد،
قلْتَ قومٌ، من قِرّةٍ، يصْطلـــونا
وغزال يُديـــــرُها ببَنانٍ
ناعمـــــاتٍ يزيدُها الغَمْـــزُ لِينَا

ومن معانيه المبتكرة أيضا قوله[193]:
يا شقيـــقَ النّفسِ مِن حَكَم
نمْـتَ عن لَيْلِي ولـم أنَـمِ
فاسْقِنِي الخمـــرَ التي اخْتَمَرَتْ
بخمـــارِ الشّيْـبِ في الرّحِمِ[194]

ويقول ابن الأثير على هذا المعنى قائلا: (وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال مصور، وبلغني أنه اختلف في هذا المعنى في حضرة الرشيد هارون رحمه الله، فقيل: إنه يريد بخمار الشيب في الرحم، أن الخمر تكون في جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها، فقال الأصمعي: إن أبا نواس ألطف خاطرا من هذا، وأسد غرضا فاسألوه،

193 الديوان : ص: 457،
194 اختمرتْ: لبست خمارا، أي وشاحا للوجه،

فأحضر وسأل فقال: إن الكرم أول ما يجري فيه الماء يخرج شبيها بالقطنة، وهي أصل العنقود، فقال الأصمعي: (ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطرا وأسد غرضا)[195]

ولأبي نواس الكثير من المعاني والأوصاف المبتكرة تتوارد في شعر الخمرة على الأخص، وذلك لكثرة ما نظمه في هذا الغرض، ولعله ما أثر عن الشعراء السابقين في موضوعات الخمر والمجون،

ومن الشعراء الذين يذكر لهم النقاد مجموعة كبيرة من المعاني المخترعة، أبو تمام الطائي، فمن ذلك قوله[196]:

وإذا أراد اللهُ نشـــرَ فضيلةٍ
طُوِيتْ أتـاح لها لسانَ حســـودِ
لولا اشتعـال النار فما وجدت
ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرفِ العـــودِ

وقوله:

بني مالك، قد نبَّهت خامل الثـرى
قُبُــورٌ لكم مستشرفات المعالـم

195 المثل السائر 1 / 316.
196 العمدة 2 / 231 - 232

غوامض قيـد الكف من متناول
وفيها علا لا يــرقى بالسلالــم

وقوله في المديح:
لو يعلم الكفرُ كم من أعصـرٍ كمنتْ
له العواقب بين السمْرِ والقضـبِ
تدبيــر معتصـم بالله منتقـمٍ
لله مُـرتقبٍ في الله مـرتغـبِ
ومطعم النصــر لم تكهـمْ أسنتهُ
يوما ولا حُجِبَتْ عن روح محتجـب

وقوله يصف الأفشينخيذر بن كاوس وزمرته بعد أن أعدمهم المعتصم وصلبهم:
بَكرُوا وأَسْروْا في مُتُونِ ضوامـرِ
قِيـدَتْ لهـم من مَرْبِطِ النَّجـارِ
لا يَبْرَحُـونَ ومن رآهُمْ خالَهُـمْ
أبداً على سَفَــرٍ من الأَسْفَـارِ
كادوا النبـوَّةَ والهُـدَى فتقطَّعَتْ
أعناقهـمْ في ذلك المضمــارِ

جَهِلُوا فلم يستكثِـرُوا من طاعـةٍ
معروفـةٍ بعمـارةِ الأعْمَـارِ
فاشددْ بهارون الخلافة إنـــهُ
سكـنُ لوحشتهـا ودارُ قــرار

وفي رائية أبي تمام هذه معاني أخرى يمكن إدراجها في سجل المعاني المبتكرة، كقوله واصفا النعمة التي لم يقدرها الأفشين حق قدرها قوله:[197]،
كم نعمـةٍ لله كانت عندَهُ
فكأنهـــا في غُرْبَـةٍ وإسَـارِ
كُسِيَتْ سبـائبَ[198] لُومِهِ فتضاءلتْ
كتضـاؤُلِ الحسنـاءِ في الأطْمـارِ

ومن معانيه المبتكرة أيضا قوله[199]:
بِزَفْرَةٍ بعد أخــرى طالما شَهِدَتْ
بأنها انتُزعتْ من صـدْرِ مكــروبِ
لكنْ عَـدَوْتَ على جِسمي فبؤْتَ بهِ

197 الديوان ، 2 / 198،
198 السبائب: الشقق المستطيلة، وكذلك يقال سبائب الدم، لما استطال في سيلانه، والأطمـار: الثياب الأخلاق،، يقول النعمة المصطنعة عند هذا المذمومكأنها الحسناء في الثياب الرثة.
199 الديوان ، 4 / 158.

يا من رأى الظَّبْيَ عـدَّاءً على الذِّئْبِ

وقوله:

دمية سمحـة القيـاد سكوب
مستغيث بهـا الثــرى المكـروب
لو سعت بقعـة لإعظـام نعمى
لسعى نحــوها المكـان الجديب

فوصف الثرى بأنه مستغيث بالسحابة، ووصف تباع الأرض بأنه تسعى نحوها لو قدرت على السعي، معنى مبتكر ليس له نظير في الشعر العربي القديم على كثرة هذا النوع من الوصف،

ويذكر ابن الأثير أن أهل الصناعة عدوا لأبي تمام ما يزيد على عشرين معنى ثم يعقب على ذلك قائلا إنه عدها فوجدها أكثر من ذلك ثم يورد أبياتا أخرى قوله:

بني مالك، قد نبَّهت خامل الثــرى
قُبُــورٌ لكم مستشرفـات المعالـم
غوامض قيـد الكفِّ من متناولٍ
وفيها عُلاَ لا يــرقى بالسلالـم

أما ابن الرومي فقد وصف بأنه أكثر المولدين اختراعا وتوليدا للمعاني، فمن ذلك قوله:

وإذا امرؤ مدح امــرؤا لنوالـه
وأطـال فيه فقـد أراد هجـاءه
لو لم يقـدر فيه بعـد المستشقى
عند الــورود لما أطـال رشاءه

وقوله في الغزل:

نظــرت فافصدت الفؤاد بلحظها
ثم انثنت عنـه فضـل يهيـم

فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت
وقع السهـام ونزعـن اليـم

وقوله:

لما تؤذنُ الدنيا من صــروفها
يكـون بكـاء الطفـل ساعة يُولَدُ
وإلا فما يُبكيـه منهـا وإنهـا
لأفسح مما كـان فيه وأرغَـدُ
إذا أبصـر الدنيا استهلَّ كأنـه
بما ســـوف يلقى من أذاها مهدَّدُ
وللنفس أحــوالٌ تظـلُّ كأنها

تشـــاهدُ فيها كل غيب سيشهـدُ

وقوله[200]:

عـدوك من صـديق مستفـاد
فلا تستكثـرنَّ من الصحـاب
فإن الـــداء أكثـرُ ما تراهُ
يكـون من الطعـام أو الشراب

ومما اختاره له ابن رشيق قوله[201]:

عيني لعينك حين تنظـر مَقْتَـلُ
لكن لحظك سهـم حتفٍ مرسـل
ومن العجائب أن معنى واحـدا
هـو منك سهـــمٌ وهو مني مقتـل

وقوله[202]:

وما يعتريهـا آفـة بشـرية

200 الديوان: جـ / 1، ص: 246،
201 الديوان: جـ / 5، ص: 130 منشورات دار مكتبة الهلال بيروت،
202 العمدة 2 / 231 - 232

من النـــوم إلا أنها تتبختـــرُ
وغيرُ عَجيب طيب أنفـاسِ روضة
مُنَوَّرةٍ باتتْ تــراحُ وتمطـــرُ
كذاك أنفاس الريـاض بسحـرة
تطيب، وأنفـاس الـورى تتغيـرُ

وعقب ابن رشيق القيرواني على هذه الأبيات بقوله إنه لم يسمع أحسن منها في هذا المعنى، والحق أن ملاحظة ابن رشيق في محلها، لأن المعاني التي اخترعها ابن الرومي كثيرة ومتنوعة لتعدد الموضوعات التي طرقها وتنوعها، فقد وصف الأحدب والأصلع والعجوز المتاصبية، فجاء بمعاني جديدة، وفعل مثل هذا في بعض أهاجيه وأوصافه، فقد أعجب النقاد بوصفه الشمس الغاربة، وقوس قزح، والمغنية وحيد، وأعجبوا بالمعاني والصور التي وردت فيها،

ومن الشعراء المعروفين أيضا بكثرة اختراع المعاني وتوليدها، أبو الطيب المتنبي، منها قوله في وصف الحُمّى[203]:

وزائرتي كـأنَّ بها حيـاءً
فليس تــزورُ إلا في الظـلام
بذلت لها المطـارفَ والحشايَا
فعافتْهَـا وباتتْ في عِظَـامي[204]

---

[203] الديوان: جـ / 4 ، ص: 276،

كأن الصبحَ يطرُدُها فتجــرِي
مدامِعُهَا بأربعـــــةٍ سِجَـــامِ
أراقب وقتها من غير شــوقٍ
مُرَاقبَـة المَشـُـــوقِ المُسْتَهَـامِ

فوضع ابن الأثير في باب الاختراع أكثر معاني القصيدة التي مدح بها المتنبي سيف الدولة، والتي وصف فيها خيمته التي قوضتها الريح من معانيها المبتكرة قوله[205]:

أيقـــدحُ في الخيمـة العُـذَّلُ
وتشْمَـل مَنْ دهْرَهَـا يشْمَلُ[206]
وتعلـــو الذي زُحَـلٌ تحتـه
مُحـــالٌ لَعَمْـرُكَ ما تُسْأَلُ
فلم لا تلـوم الـــذي لامها
وما فصُّ خاتِمِـهِ يَذْبُـــــلُ
تضيـقُ بشخصـك أرجاؤُهَا

---

[204] المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من خز في جنبه علمان، والحشايا: جمع حشية، وهي ما حشي من الفراش مما يجلس عليه، وعافتها: كرهتها ، وهو بذلك يريد أن يقول هذه الزائرة ، يعني الحمى، لا تبيت في الفراش ، وإنما تبيت في عظامي،

[205] الديوان : 3 / 236 وما بعدها،

[206] أيقدح: أيعيب،

ويركض في الواحد الجحفـلُ
وتقصُرُ ما كُنتَ في جَوْفِهَـــا
وتُرْكَـــــزُ فيهـا القنا الذُّبَّـلُ

وقوله:
وأن لهـا شرفـاً باذخـاً
وأنَّ الخيـامَ بهـا تخْجَـــلُ
فـلا تُنْكِرنَّ لها صرعـــةً
فمِنْ فـــــرحِ النفْسِ ما يَقْتُلُ
ولو بُلِّغَ النـــــاسُ ما بلِّغَتْ
لخانتْهُمُ حـولك الأرجُـــــلُ
ولمَّا أَمَـرْتَ بِتَطْنِيبِهَـــــا
أُشيعَ بأنـــــكَ لا تَرْحَـلُ[207]
فما اعتمـــدَ اللهُ تقويضهـا
ولكـــنْ أَشـــــار بما تَفْعَـلُ
وعـرَّفَ أنكَ من همّـــــهِ

[207] التطنيب: مد الأطناب، يقول: لما أمرت بهذه الخيمة أن تنصب وتمد أطنابها، أشيع الخبر في الناس أنك لست راحلا للغزو، لأمر دعاك إلى الإقامة.

وبذلك نقول إن ظاهرة اللفظ الدخيل في شعر شعراء المولدين والمحدثين، لم تكن السبب الوحيد الذي دفع الرواة والنقاد القدماء إلى ثقتهم بهذه الصفة وتميزه عن الشعر العربي القديم، ولا شك في أن الميزة الكبرى التي اكتسب بها هذه التسمية، تمثلت في الصياغات التعبيرية التي استحدثها التوليد ثم إدراجها في لغة الشعر والنثر،

وصادف أن عاش هؤلاء الشعراء في حياة زاخرة بالمعتقدات الدينية والمذاهب الكلامية والنزعات الطائفية والعرقية الطافحة بالنشاط العقلي والفني، وكان أغلب هؤلاء الشعراء ينتمون إلى طبقة الموالي، التي كانت تعد يومئذ الطبقة الثانية في السلم الاجتماعي للأمة الإسلامية، يقول فون كريم[208]: (من المحقق أن الطبقات الدنيا في الولايات المفتوحة في الأمبراطورية الفارسية البائدة أصبحت موالي برمتها، وبذلك أصبح يوجد في الولايات الجديدة سلم الطبقات المتدرج الآتي:

ـ العرب الفاتحون وأبناؤهم،

ـ المسلمون الجدد أي المواطنون والموالي الذي اعتنقوا الإسلام حديثا،

ـ السكان غير المسلمين،

فهؤلاء الموالي كان لهم الأثر الأكبر في الحياة الاجتماعية، وفي النتاج الحضاري الضخم الذي وافق العصر العباسي، وبذلك يمكننا القول بأن الموالي كانوا أقوى العناصر التي عملت على تجديد الحياة الاجتماعية، وإذكاء روح النشاط الأدبي

---

208 الحضارة الإسلامية ص:79،

والفكري والديني، الأمر الذي أدى إلى ظهور الكثير من التواليف التي تتعصب لنزعاتهم، وبالتالي إلى إيجاد توالف مناهضة لها تتعصب للعرب، ومن تواليف الموالي في هذا السبيل على سبيل المثال ما ألفه الهيثم بن عدي، وسهل بن هارون، وعلان الشعوبي، وأبو عبيدة، وتغلغلت هذه النزعة في مظاهر الإنتاج الأدبي والعلمي، ولم نقف عند حد وضع القصص واختلاقها لتعزيز دعواهم وتسخيرها في سبيل فرضها بالنبل من العرب ومن الإسلام بل تجاوزت ذلك إلى وضع الأحاديث الكثيرة وإسنادها زورا إلى الثقات من الصحابة والتابعين[209]، وظهرت هذه النزعة سافرة أشد السفور في الشعر، يقودها بشار بن برد، وأبي نواس،

وكان لنشأة العلوم المختلفة وتطويرها، ولا سيما علوم اللغة والنحو والصرف والفلسفة وعلم الكلام والتفسير والحديث والأدب أدوار فعالة في تغذية عملية التوليد وتميتها ومضاعفة تأثيرها في لغة الشعر والنثر،

وقد ظهر أثر هذا التوليد المتواصل، لما لاحظ القدماء والمعاصرون في نواحي أخرى بالإضافة إلى ناحية اللفظ، ظهر في غلبة الرقة والسهولة من لغة المولدين وبروزها كظاهرة فنية بارزة لأسلوبهم، وفي ميل الشعراء إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة والقوافي الجميلة، وفي استعمال المفردات بالاصطلاحات العلمية والفلسفية المولدة، وفي الاقتراب من لهجات العامة والتأثر، وإمالاتها واختصاراتها وصياغاتها الصوتية واللفظية، بل الذهاب إلى حد استعمال العاص المبتذل، والذي ظهر في طلب الصنعة البديعية اللفظية والمعنوية، والتقيد بقواعدها الجديدة، والتمسك بها

---

209 ضحى الإسلام، أحمد أمين، ص: 77 ، 78،

كصرف فني يفرض نفسه على لغة الشعر والنثر، وهذا ما حدا بابن رشيق القيرواني إلى القول[210]:

'.. والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدُّوا من فضل صنعة الحطيئة[211] حسنَ نسقِه الكلامَ بعضه على بعض في قوله:

فلا وأبيك ما ظلمتْ قُرَيْعٌ بأنْ يَبْنُوا المكارمَ حيث شاءُوا
ولا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ ولا بَرِمُـوا لِذَاكَ ولا أساءُوا

وقد أدرك ابن رشيق بلا شك ما ذكره الأصمعي والجاحظ من قبل فأكّد دور الشعراء المحدثين وذلك في قوله[212]:

(ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا، وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمد، لكن بطباع القوم عفوا، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ...)

---

210 العمدة الجزء الأول ص: 108
211 الديوان: ص: 55 طبعة دار صادر،
212 االعمدة الجزء الأول ص: 110 وما بعدها،

والله الموفق

انتهى الجزء الأول من كتاب خصائص الشعر
ويليه الجزء الثاني في
ـ العصر العباسي الثاني ـ

فهرست الموضوعات

- تقديم
7.....
- تمهيد
18.....
- الحياة الاجتماعية والسياسية
31.....
- الأحوال السياسية
32 .....
- توسع المعاني وتزايدها وتعقدها

بتأثير العلوم العقلية
41.....
ـ ألفاظ وأساليب الشعر المولد
75 .....
ـ معاني المولدين والمحدثين
91 .....

المصادر والمراجع

ـ الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، طبع القاهرة 1954 م،
ـ الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستطرف، طبع القاهرة 1368هـ،
أحمد مطلوب، ـ البرهان في وجوه البيان، تحقيق ودراسة، بغداد 1967 م،
ـ أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، بيروت 1973 م،

ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ طبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1965م،
ـ أحمد أمين، ضحى الإسلام طبعة القاهرة، 1938 م،
ـ أحمد شلبي في قصور الخلفاء العباسيين القاهرة، 1954م
ـ ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، ألمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، طبعة الحلبي 1939 م،
ـ ابن الأثير عز الدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، طبع القاهرة، 1882م
ـ ابن الإنباري، محمد، نزهة الألباب في طبقات الأدبا،
ـ بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، القاهرة 1952 م
ـ ابن الجراح، أبو عبيدة الله محمد بن داود، الورقة، طبع دار المعارف القاهرة 1953 م،
ـ ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، طبعة القاهرة 1913 م،
ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبعة القاهرة، 1331هـ،
ـ ابن رشيق القيرواني، العمدة، طبعة بيروت 1886 م،
ـ ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج، ديوانه بيروت لبنان،
ـ ابن سلام، أبو عبد الله محمد الجمحي، طبقات الشعراء، طبعة المعارف، القاهرة 1952 م،
ـ ابن الشجري، أبو السعادات هبة الله، ـ كتاب الحماسة ـ طبع حيدر آباد 1345هـ
ـ ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي، ـ عيار الشعر طبع القاهرة 1956 م

ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد القاهرة، طبع لجنة التأليف والنشر والترجمة، 1940 م،
ـ ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة 1350هـ،
ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق محمد شاكر، 1967 م،
ـ ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ طبعة القاهرة، 1932 م،
ـ ابن المعتز عبد الله، ـ كتاب البديع ـ طبعة القاهرة 1935 م،
ـ ابن المعتز، عبد الله، ـ طبقات الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد
ـ ابن منظور، المصري، ـ أخبار أبي نواس ـ القاهرة 1924م
ـ أبو تمام ، حبيب بن أوس، ديوان الحماسة ، طبع القاهرة 1335 هـ ،
ـ أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، ديوانه الأنوار الزاهية طبع بيروت، 1914م
ـ ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، 1368 هـ ،
ـ أبو علي اسماعيل بن القاسم ـ كتاب الأمالي ـ ، طبع دار الكتب بالقاهرة 1926 م،
ـ ابن سنان الخفاجي ـ سر الفصاحة ـ القاهرة، 1953 م،
ـ أبو نواس، الحسن بن هاني، ديوانه القاهرة 1953 م،
ـ بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ـ (الترجمة العربية)
ـ الثعالبي ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1965م،

ـ ابن رشيق القيرواني، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقي الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972 م،
ـ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ، طبعة صبيح القاهرة،
ـ حسين نصار نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية 1966 م،
ـ ابن طباطبا، عيار الشعر، محمد بن أحمد العلوي، القاهرة 1956م،
ـ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب ودار صادر،
ـ البغدادي، خزانة الأدب ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967 م
ـ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1948 م،
ـ الجاحظ، البخلاء القاهرة 1947م
ـ الجرجاني، عبد القاهر،
ـ أسرار البلاغة القاهرة 1947م
ـ دلائل الإعجاز القاهرة 1947م
ـ الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاهرة 1945م
ـ جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ القاهرة 1958م
ـ حسين نصار ـ تاريخ التدوين التاريخي عند العرب ـ القاهرة
ـ الحصري القيرواني زهر الآداب ـ تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1953 م،
ـ الحصري القيرواني جمع الجوامع، ـ تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1953 م،
ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد، ـتاريخ بغداد ـ القاهرة 1931م،

ـ السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، ـ المزهر ـ القاهرة 1282هـ،
ـ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة 1965 م،
ـ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، القاهرة 1952م،
ـ شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة 1960 م،
ـ صاعد، القاضي أبو القاسم الأندلسي، طبقات الأمم القاهرة صبيح،
ـ الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، كتاب الأوراق،
ـ طه حسين، ـ مع المتنبي القاهرة،
ـ من حديث الشعر والنثر، القاهرة 1936 م،
ـ ضياء الدين نصر الله بن محمد، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة الحلبي 1939 م،
ـ عبد الرحمان جلال الدين السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها، طبع الحلبي القاهرة 1282هـ،
ـ العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، القاهرة طبعة صبيح،
ـ العقاد، محمود عباس، أبو نواس، طبع الرسالة ونشر الأنجلو بالقاهرة،
ـ العقاد، محمود عباس ابن الرومي حياته من شعره، القاهرة 1957م
ـ فارمر، هـ ، جـ ، تاريخ الموسيقا العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، طبعة القاهرة 1956م،
ـ فلهوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية وسقوطها ترجمة د. أبو ريدة طبعة دار الاستقامة القاهرة 1956م،
ـ فون كريمر، الفرد ـ الحضارة الإسلامية ـ ترجمة د. محمد يوسف نجم، القاهرة، 1947م

ـ قدامة بن جعفر نقد الشعر، ، القاهرة 1949 م،
ـ قدور ابراهيم عمارالمهاجي، دراسات في الأدب العربي الإسلامي والأموي طبع ديوان المطبوعات الجامعية، وهران 1999م
القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم ـ كتاب الأمالي ـ القاهرة 1926م
ـ القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ط، الخانجي 1326هـ
ـ القفطي أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القاهرة 1952 م،
ـ الاشتقاق والتعريب، عبد القادر مصطفى المغربي القاهرة 1947م،
ـ المازني، ابراهيم عبد القادر ـ بشار بن برد ـ طبعة الحلبي القاهرة،
ـ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد ـ الكامل ـ القاهرة، 1365م
. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوانه شرح البرقوقي القاهرة 1938م
ـ محمد بديع شريف ـ الصراع بين الموالي والعرب ـ القاهرة 1954م
ـ المرزباني الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة 1965م،
ـ المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، القاهرة 1952 م،
ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبع دار السعادة، مصر 1964م،
ـ التنبيه والإشراف طبعة بريل، 1893 م
ـ مسلم بن الوليد، الديوان، طبعة بريل،

ـ محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، القاهرة 1964 م،
ـ مصطفى الشكعة، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1967 م،
ـ معروف الرصافي، الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه، ، بغداد 1965 م،
النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب، طبع دار الكتب القاهرة 1924م
ـ ياقوت، أبو عبد الله بن عبد الله الحموي ـ معجم الأدباء ـ تحقيق أحمد فريد رفاعي، القاهرة 1923 م،